سورة التين

مكية وهي تسع آيات مع البسملة وهي ركوع واحد

هذه السورة مكية في قول الجمهور. وروى القرطبي عن ابن عباس أنها مدنية، كما أورد قول قتادة بأنها مدنية، ولكن يخالف هذه الرواية ما أخرجه ابن الضريس والنحّاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: أُنزلت سورة التين بمكة؛ فهذه الرواية تبطل ما رواه القرطبي عن ابن عباس، وتؤكد أنها مكية عنده.

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله، أي أنها مكية. أما باقي العلماء فاعتبروها مكية، رغم رواية القرطبي أنها مدنية. (فتح البيان، القرطبي، وروح المعاني)

ورد في البخاري ومسلم وأبي داود وابن ماجة وغيرهم عن البراء بن عازب قال كان النبي ﷺ في سفرٍ فصلّى العشاء، فقرأ في إحدى الركعتين بالتين والزيتون، فما سمعتُ أحدًا أحسنَ صوتًا ولا قراءةً منه. وعنه قال: صليت مع رسول الله ﷺ المغرب، فقرأ بالتين. أخرجه الخطيب.

وقد قال "نولدكه" المستشرق الألماني إن هذه السورة قد نزلت بعد سورة البروج، أي في مكة في أوائل البعثة. وأما القسيس "ويري" فيؤيده ويضيف أن أسلوبها أيضا مكيّ. (تفسير "ويري" للقرآن)

لقد قلت مرارا إن قول القسيس إن "أسلوبها" مجردُ مماحكةٍ وتعنُّتٍ، إذ لم يكنْ يعرف العربية جيدا، فكيف يعرف أسلوب السورة؟

وكذلك قال "ويري" إن كلمات ﴿هَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ تشير بوضوح إلى كون هذه السورة مكية، لأن كلمة ﴿هذا﴾ إشارةٌ إلى مكة.

لا شك أن حجّته هذه قيّمة، ولكنها ليست قطعية. نحن نتفق معه في أن هذه السورة مكية، ولكنه كتب أن بعض المسلمين يعتبرونها مدَنية متمسكين بدون وعيٍ بالأحاديث التي وُضعت لشرح القرآن، وطريقهم هذا منكَر.

لا شك أن قول "ويري" هذا يدل على بغضه الشديد، لأن جمهور المسلمين يعتبرونها مكية. ثم إذا كان المسلمون يضعون الأحاديث لمصلحتهم فكانت مصلحتهم تكمن في اعتبار هذه السورة مكية، فما دام الجمهور يعتبرها مكية فاتهامه المسلمين بهذه التهمة –وخاصة اعتبار الأحاديث موضوعة– أمرٌ مخجل جدًّا. لقد بينتُ من قبل أن الروايات تعتبر هذه السورة مكية، والقرطبي وحده ينقل رواية تقول إنها مدَنية، وقد يكون هذا خطأ الناسخ، وحتى ولو لم يكن الأمر كذلك، فإن القرطبي ليس راويا، إنما هو ناقل رواية، وقد قلت إن الرواة كلهم يعتبرونها مكية لا مَدَنية. أما اعتبار "ويري" هذه السورة مكيةً بناءً على أسلوبها، فهذا مجردُ مماحكةٍ وتعنُّت. فلو وضعنا القرآن الكريم أمام "ويري" وقلنا له: إذا كنت قادرا على معرفة الكلام بأسلوبه، فأخبِرْنا أي آيات من سورة ما مكية وأيها مدنية، فلا شك أنه سيرتكب عشرات الأخطاء. كل ما في الأمر أنه وجد الروايات كلها متفقة على كون هذه السورة مكية، فقال فلأطرحْ هذه القضية بأسلوب جديد، وأقول إن أسلوبها يدل أنها مكية. مع أن معرفة الكلام من خلال أسلوبه ليس سهلا كما قلت آنفًا. الحق أن مَن يتدبر في الكلام ليل نهار بعمق ويبذل جهدًا عقليا كبيرا لا يستطيع أيضا معرفة الكلام من خلال أسلوبه إلا بصعوبة. أما الآخرون فالأمر صعب عليهم جدًّا وقد لا يقدر عليه إلا واحد من مائة ألف شخص. فمثلاً إن جميع المسلمين يعرفون القرآن ويقرءونه، ومع ذلك نجد أن كثيرا منهم يذكرون في خطبهم أحيانًا أحاديث ضعيفة على أنها آيات من القرآن الكريم، مع أنهم أكثرُ إلماما بالقرآن الكريم من هذا القسيس.

كان من عادة المولوي محمد أحسن الأمروهي أنه كلما بدأ المسيح الموعود عليه السلام كلامه قاطعَه فورًا. فمثلا لو قال عليه السلام إن القرآن الكريم قد ذكر أمرًا كذا بأسلوب لطيف جدا، قاطعه المولوي الأمروهي قائلا: سبحان الله! ما ألطفَه من بيان! ومن

ذا الذي يقدر عليه! ومرةً خرج المسيح الموعود عليه السلام للنزهة وكنت بين مرافقيه، فقال عليه السلام: لقد تلقيتُ اليوم وحيًا يتضح منه الفرق بين كلام الله وكلام العبد. فلم يلبث المولوي الأمروهي أن حرّك يديه وقال: سيدي، لا شك أن الفرق بين كلام الله وكلام العبد كالفرق بين السماء والأرض! سيدي، فمتى يجاري كلامُ العبد كلامَ الله تعالى؟ ولما سكت قليلا استأنف المسيح الموعود عليه السلام حديثه وقال: كان الحريري قد بلغ الذروة في الأدب العربي، ولكن كلامه يفتقر إلى الدقائق الموجودة في كلام الله تعالى. فبدأ حضرة الأمروهي يقول: سيدي، الحريري؟ ما قيمة الحريري؟ وأنّى له أن يجاري كلامَ الله في علوّ شأنه وعظمته وقوته؟ فقال عليه السلام: خُذوا مثلا هذه العبارة. وما إنْ سمع حضرة الأمروهي تلك العبارة حتى قال: سيدي، هل هذه جملة؟ هل هذه جملة عربية؟ أنّى للحريري أن يعرف العربية؟ مع أن تلك الجملة كانت وحيًا للمسيح الموعود عليه السلام، ولم تكن قولاً للحريري. فقال عليه السلام: على رِسْلِك حضرة الأمروهي، إنه ليس قولاً للحريري، إنما هو وحي أنزله الله عليّ اليوم.

فترى أن المولوي محمد أحسن الأمروهي رضي الله عنه كان شيخًا كبيرًا يقضي ليله ونهاره في قراءة الكتب العربية، فلو كانت معرفة الكلام بأسلوبه سهلاً لهذه الدرجة لعرف على الفور أن تلك الجملة ليست من كلام البشر، بل هو كلام الله، ولكنه أخطأ وظن الوحي الرباني كلام البشر.

لا جرم أنه يمكن للمرء أن يعرف بالتخمين أن السورة مكية أو مدنية نتيجة كثرة استئناسه بالقرآن ووجودِ المشابهة في العبارات، ولكن هذا التقدير ليس حجة. فالكلمات هي هي تقريبًا في القرآن وفي الكتب العربية الأخرى. فمثلاً قد وردت كلمة الرزق والجهاد والغد وغيرها في القرآن كما وردت في الكتب الأخرى، ومع ذلك فهي لا تبلغ شأو كلمات القرآن عظمةً وروعة؛ ذلك أن الاشتراك اللفظي وحده ليس بشيء، بل إن ما يميّز الوحي القرآني هو نظم كلمات القرآن كحبات العقد مما لا يوجد نظير له في الدنيا. ومع ذلك ليس بوسع أحد أن يدعي بناءً على

اجتهاده أنه قادر على التمييز بين كلمات القرآن وغيره بصورة قطعية، إلا إذا كان حافظا للقرآن الكريم أو كالحافظ.

فالحق أن اعتبار القسيس "ويري" هذه السورة مكيةً نظرًا إلى أسلوبها إنما هو إعجابه بنفسه؛ فإننا لو وضعنا أمامه آيات قرآنية مختلفة وسألناه أن يميز لنا بين المكية والمدنية منها لارتكب مئات الأخطاء. إنه لا يعرف الأسلوب المكي من المدني من الآيات إلا بقصرها أو طولها فقط، فالطويلة منها مدنية عنده والقصيرة مكية، مع أن هذا التمييز يمكن أن يقوم به طفل عادي.

فثبت أن هجوم "ويري" على المفسرين والأحاديث ليس في محله، وهو دليل على بغضه وحقده تجاه الإسلام؛ ذلك أن الرواة المسلمين أنفسهم يعتبرون هذه السورة مكية، بل الحق أن "ويري" نفسه لم يعرف أنها مكية إلا بناء على ما رواه المسلمون أنفسهم، ولولا ما رووه ما عرف ما إذا كانت هذه السورة مكية أم مدنية.

الترتيب والترابط:

تكمن علاقة هذه السورة بصورة الشرح في أن الله ﷻ أخبر في السورة السابقة أن عاقبة محمد (ﷺ) ستكون خيرا، لأن كل ما هو ضروري للعاقبة الحسنى ميسّر له، بينما أخبرَ في هذه السورة أن شهادة تاريخ الأمم السابقة أيضا تؤكد نجاحه. ذلك أنه عندما يُقدَّم للمرء دليل عقلي على أمر لا يطمئن به تماما، بل يريد عليه دليلا تاريخيا أيضًا ليعلم أن هذا ممكن بالفعل، وسورة الشرح تقدّم دليلا عقليًّا، وأما سورة التين فتقدّم أمام الكافرين دليلاً تاريخيًّا؛ حيث تُبيِّن لهم أنه قد سبق أن كتب الله لأمم سابقة النجاح في ظروف مماثلة، فإذا كان الانتصار حليفًا لآدم ونوح وموسى رغم الظروف غير المواتية، وبأسباب روحانية فقط، فيمكن أن تستنتجوا من ذلك أن هذا ممكن الآن أيضًا. وقد أعاد الله نفس الموضوع بعد ذلك في السورة التي تلت هذه السورة أيضا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿٢﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٣﴾

وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٤﴾

التفسير: أي نقدّم شهادةً التِّينَ وَالزَّيْتُون وَطُورَ سِيناء وَهَذَا البَلَدَ الأَمِين. وقال صاحب "فتح البيان": قال أكثر المفسرين هو التين الذي يأكله الناس، والزيتون هو الذي يعصرون منه الزيت الذي هو إدامُ غالب البلدان ودهنُهم، ويدخل في كثير من الأدوية.

فهؤلاء القوم يرون أن هذه الأشياء لم تُذكَر هنا استعارةً وتمثيلا، وإنما هي التين المادي الذي يأكله الناس والزيتون المادي الذي يستعملون زيته إدامًا أو يضعونه في أنواع المخلَّلات. علمًا أننا نضع في المخللات زيتًا عاديًّا أو خلاًّ، أما في البلاد الغربيّة فيضعون فيها زيت الزيتون عادةً.

وقال الضحاك إن التين والزيتون هو المسجد الأقصى. وقال ابن زيد: هو مسجد بيت المقدس. وقال قتادة: المراد منها الجبل الذي عليه بيت المقدس. وقال عكرمة وكعب الأحبار: المراد بيت المقدس. وعن ابن عباس قال: بلاد فلسطين، وقال أيضا بيت المقدس. ويقول صاحب فتح البيان بعد إيراد هذه الأقوال كلها: "وليت شعري ما الحامل لهؤلاء الأئمة على العدول عن المعنى الحقيقي في اللغة العربية والعدول إلى هذه التفسيرات البعيدة عن المعنى المبنية على خيالات لا ترجع إلى عقل ونقل. وأعجبُ مِن هذا اختيارُ ابنِ جرير للآخِرِ منها، مع طول باعه في علم الرواية والدراية!" (فتح البيان)

علمًا أن ابن جرير مفسِّر ومحدِّث كبير ذو رأي رائع.

ثم يقول صاحب "فتح البيان" قال الفراء: سمعتُ رجلا يقول: التين جبال حلوان إلى همدان، والزيتون جبال الشام. قلتُ: هَبْ أنك سمعتَ هذا الرجل، فكان ماذا؟ فليس بمثل هذا تثبُت اللغةُ! ولا هو نقل عن الشارع. (فتح البيان)

إن هذه الجملة التي خرجتْ مِن قلم صاحب "فتح البيان" تجعلني أثني عليه، إذ من المحير أن ينقل رجل مثل الفراء هذا الكلام! مع أن القول الذي سمعه يمكن أن يكون قائله ولدًا صغيرًا أو شخصًا بسيطا لا علم له باللغة، فكيف يمكن تأسيس تفسير القرآن على قول واهٍ من شخص مجهول. كان عليه إما أن يقول إنني عالم اللغة وأرى أن هذا المعنى صحيح، أو يقول إني سمعت هذا التفسير من فلان من الأدباء أو القبائل، ولكنه يقول سمعتُ شخصًا يقول أن المراد من التين جبال حلوان إلى همدان، والزيتون جبال الشام. إنما يماثل ذلك أن يقول "غالب" أو "ذوق": سمعتُ ولدًا غبيًا من قريةٍ يشرح بيت الشعر الفلاني هكذا.

باختصار، إن تعليق صاحب "فتح البيان" لطيف جدا، إذ يقول إنني لا أصدّق أنه سمع هكذا من شخص، وإذا كان قد سمعه فعلاً، فكيف يصح تفسير القرآن بناءً على قول كهذا.

ولو أن صاحب "فتح البيان" تمسكَ بقوله هذا لكان جيدا، لكنه هو الآخر قد وقع في أخطاء مماثلة في مواضع أخرى.

وقال محمد بن كعب: الزيتون هو مسجد إيليا*. وقيل أنه على حذف مضاف، أي منابت التين والزيتون. قال النحاس: لا دليل على هذا من ظاهر التنزيل، ولا مِن قول مَن لا يجوز خلافه. وقال الرازي: أما الزيتون فهو فاكهة مِن وجه ودواءٌ مِن وجه، ويُستصبَح به (أي يستضاء به). ومَن رأى ورقَ الزيتون في المنام استمسكَ بالعروة الوثقى.

وقال ابن كثير: قال القرطبي هو مسجد أصحاب الكهف. وروى العوفي عن ابن عباس أنه مسجد نوح الذي على الجوديّ. وقال بعض الأئمة: هذه مَحالٌّ ثلاثٌ بعث الله في كل واحد منها نبيًّا مرسلاً من أولي العزم أصحابِ الشرائع

* أي القُدس، وهو من أسمائها القديمة. (المترجم)

الكبار؛ فالأول محلّه التينُ والزيتون، وهو بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى بن مريم عليه السلام، والثاني هو طور سينين، وهو طور سيناء الذي كلّم الله عليه موسى بن عمران، والثالث مكة، وهذا البلد الأمين الذي مَن دخله كان آمنا، وهو الذي أَرسل فيه محمدًا ﷺ. قالوا: وفي آخر التوراة ذِكْرُ هذه الأماكن الثلاثة: جاء الله مِن طور سيناء -يعني الذي كلّم الله عليه موسى بنَ عمران- وأشرقَ من ساعير -يعني جبل بيت المقدس الذي بعث الله منه عيسى- واستعلنَ مِن جبال فاران- يعني جبال مكة التي أرسل الله منها محمدا ﷺ. (التثنية ٣٣: ٢)

هذه فقرة شهيرة في التوراة تتحدث عن بعثة النبي ﷺ، وعندي أنها أول قول ذكره المفسرون في محلّه، حيث وردت هنا نبوءة عن بعثة النبي ﷺ، وإلا فإن العبارات التوراتية التي يشير إليها المفسرون عادة تكون خاطئة على العموم، فإنها لا توجد في التوراة أصلا، أو لا تكون فيها كما ذكرها المفسرون.

ثم يقول: "فذكَرَهم مخبرًا عنهم على الترتيب الوجودي بحسب ترتيبهم في الزمان.. ولهذا أقسمَ بالأشرف ثم الأشرف منه ثم بالأشرف منهما." (ابن كثير)

يبدو أن فقرةً سقطتْ هنا خطأً، أو لأن الترتيب الزماني قد ذُكر من قبل، ولهذا فكَّر المفسر أن القارئ سيفهم تلقائيا أن القرآن لم يراعِ ترتيب التوراة التي ذكرتْهم مراعيةً درجاتِهم لا أزمنتَهم، فذكرت أولاً عيسى عليه السلام ثم موسى ثم رسولنا ﷺ، بل ذكَرهم بحسب أزمنتهم فذكر التينَ والزيتون أولاً اللذين يشيران إلى عيسى الذي هو أدنى درجةً من النبيَيْن الآخَرَين، ثم ذكر طور سيناء الذي يشير إلى موسى عليه السلام الأعلى درجة من عيسى عليه السلام، وفي الأخير قال: وهذا البلد الأمين إشارةً إلى النبي ﷺ الذي هو أفضل من موسى وعيسى كليهما.

هذا التأويل الذي قام به ابن كثير معقول وصحيح جدا. ولقد وجدت رأيه صائبًا في كثير من الأحيان كما هو الأمر هنا، حيث يقول إن التوراة ذكرتْ هؤلاء الرسل بترتيب زمانهم، أما القرآن فذكرهم بترتيب مكانتهم. وهذا أمرٌ لم أقرأه في أي تفسير آخر. إن المفسرين الآخرين عندما يذكرون المسيح عليه السلام يصابون بالرعب بسبب ما ذكره أبو هريرة من أحاديث، ويخافون أنهم إذا اعتبروا أي نبي

أفضل من عيسى فربما يرتكبون إساءة، ولكن ابن كثير- وهو من كبار المفسرين- يعتبر بشكل قاطع المسيحَ الناصري أدنى درجةً من موسى عليه السلام.

يقول المولوي محمد علي في تفسيره: لم يُذكر التين في أي مكان في القرآن الكريم، أما الزيتون فهو مذكور في سورة النور أيضا التي شبَّهت النور المحمدي بالزيتون. من ناحية أخرى شُبِّهَ التين في التوراة بالأمة الموسوية، حيث ورد: "وَإِذَا سَلَّتَا تِينِ مَوْضُوعَتَانِ أَمَامَ هَيْكَلِ الرَّبِّ.....فِي السَّلَّةِ الْوَاحِدَةِ تِينٌ جَيِّدٌ جِدًّا مِثْلُ التِّينِ الْبَاكُورِيِّ، وَفِي السَّلَّةِ الأُخْرَى تِينٌ رَدِيءٌ جِدًّا لا يُؤْكَلُ مِنْ رَدَاءَتِهِ." (إِرْمِيَا ٢٤: ١-٢)، ثم ورد فيما بعد أن التين الجيد هم خيار بني إسرائيل، والتين السيئ هم أشرارهم. والحقّ أن حادث التينة الشهيرة التي لعنها المسيح إشارةٌ إلى هذا الأمر، حيث ورد: "وَفِي الصُّبْحِ إِذْ كَانَ رَاجِعًا إِلى الْمَدِينَةِ جَاعَ، فَنَظَرَ شَجَرَةَ تِينٍ عَلَى الطَّرِيقِ، وَجَاءَ إِلَيْهَا فَلَمْ يَجِدْ فِيهَا شَيْئًا إِلا وَرَقًا فَقَطْ، فَقَالَ لَهَا: لا يَكُنْ مِنْكِ ثَمَرٌ بَعْدُ إِلى الأَبَدِ. فَيَبِسَتِ التِّينَةُ فِي الحال" (مَتَّى ٢١: ١٨-١٩). إذ كيف يمكن أن يسخط المسيح عليه السلام على التينة إذا لم تثمر في غير الموسم؟ الواقع أن هذا الحادث تمثيل بأن التينة تنوب عن أمة بني إسرائيل، ولكن كَتَبَة الإنجيل المتمسّكين بالحرفيّة حوّلوه إلى حادث حقيقي. (بيان القرآن، المجلد الثالث)

هذا ما كتبه المولوي محمد علي، ولكن قوله هذا يماثل قول القسيس "ويري" المذكور قبل قليل. ذلك أن أتباع الإنجيل أنفسهم لا يأخذون هذا الحادث على ظاهره، بل يعتبرونه تمثيلا. أتذكّرُ جيدًا أن المسيح الموعود عليه السلام قدم هذا الحادث أمام المسيحيين في مناظرة مثالاً على أخلاق المسيح الناصري عليه السلام وقال: هذه هي أخلاق المسيح بأنه لَعَنَ التينةَ لأنها لم تأتِ بثمر، مع أنها لم يكنْ لها أي ذنب في ذلك (جشمه مسيحي -أي العين المسيحية- الخزائن الروحانية المجلد ٢٠ ص ٣٤٦). فردّ عليه النصارى: نحن لا نأخذ هذا الحادث على ظاهره، إذ الثابت من الإنجيل أن الموسم لم يكن موسم ثمر التين، فكيف يمكن أن يذهب المسيح إلى التينة ليأكل منها؟ إنما المراد من التينة هنا اليهود، فقد أراد المسيح أن تحيا الأمة اليهودية

بالإيمان به وتحمل أثمارا روحانية، ولكنهم رفضوا الإيمان به، فلعنهم المسيح.. بمعنى أن هذه الأمة قد حُرمتْ من نِعَم الله تعالى إلى الأبد.

لقد ظنّ المولوي محمد علي أنه يقدم تفسيرًا عظيمًا للناس، مع أن النصارى يفسرون هذه الحادثة باعتبارها تمثيلا، وبأنها إشارةٌ إلى دمار اليهود؛ أي أن هذه التينة لم يعُدْ فيها إلا الأوراق، ولن تثمر؛ بمعنى أنه لم يبق لدى اليهود إلا التمسك بظاهر الكلمات ولم تعُدْ فيهم ثمار الروحانية، لذلك فإن شجرة اليهود سوف تجفّ الآن.. أي لن يأتي فيهم نبي.

فثبت أن التين ينوب عن أمة بني إسرائيل، والزيتون ينوب عن الأمة المحمدية، وأن التين والزيتون ليسا مثالين مختلفين، وإنما يتعلقان بطور سيناء والبلد الأمين؛ إذ أُشيرَ بهما أولاً إلى الأمتين الموسوية والمحمدية إشارةً خفية، ثم أشيرَ إلى الأمتين صراحةً بقوله تعالى ﴿وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾.

لقد كتب الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام أن الله تعالى قد أقسم بالتين والزيتون لأنهما يُستعملان غذاءً ودواء أيضًا، فتارةً يصف الطبيب للمريض تينًا وتارةً أخرى زيتونًا، ومفهوم الآية أن الله تعالى قد وصف للناس وصفةَ "طور سيناء" في زمن، وقد وصف وصفة البلد الأمين في هذا الزمن. (تلخيص مِن "حقائق الفرقان"، المجلد الخامس)

إذن، فهذه الآية مثال على الأسلوب البلاغي الذي يسمى اللَّفّ والنشر، فالتين إشارةٌ إلى أمة بني إسرائيل، والزيتون إشارةٌ إلى الذين ينتمون إلى البلد الأمين. مما يعني أن الخليفة الأول رضي الله عنه قد سبق المولوي محمد علي في بيان المفهوم الذي ذكره الأخير في تفسيره. ومثال السلّتين أيضًا الذي ذكره المولوي محمد علي من الإنجيل قد سمعته بنفسي من فم الخليفة الأول رضي الله عنه، ولكن المؤسف أنه غير موجود في دروسه القرآنية المطبوعة؛ وسببه أن السيد مفتي محمد صادق والسيد قاضي أكمل كانا يكتبان هذه الدروس، ولكنهما كانا يتركان معظم كلماته مكتفين بملحوظات مختصرة لدروسه. ومع ذلك قد ورد في دروس حضرته رضي الله عنه المطبوعة أن الله تعالى قد قدّم التين والزيتون شهادةً لأنهما يُستعملان دواءً علاوة على الغذاء، فإن الطبيب

يصف التين للمريض حينا، وأحيانًا يغير هذه الوصفة فيأمره بتناول الزيتون إذا رآه مفيدًا له.

مما يعني أن الخليفة الأول ﷺ قد ذكر معنًى إضافيًّا، وهو كما أن الطبيب يصف للمريض الزيتون بدل التين، كذلك فلا اعتراض على الله تعالى إذا كان قد استبدل الآن وصفة الزيتون بالتين؟ إن الله حكيم ينزل من السماء علاج المرض بحسب حالة المرضى دائما، فعندما كان الناس بحاجة إلى وصفة التين أنزل التينَ، وحين احتاجوا إلى وصفة الزيتون أنزل الزيتون، وهذا التغيير ليس موضع اعتراض، بل هو دليل على حكمته ﷻ وبأنه لا يفعل إلا ما هو نافع وصالح للعباد.

هذا الموضوع اللطيف جدا لم يذكره المولوي محمد علي لأن فيه دليلاً على أن قائله طبيب، فاقتبس من كلام الخليفة الأول ما لا يشير إليه ﷺ، وتركَ الجزء الذي إذا ذكره تمت الإشارة التلقائية إلى الخليفة الأول ﷺ. لا شك أن المولوي محمد علي قد نال ثناء الناس عليه بذكر هذا الموضوع، فآلاف المسلمين غير الأحمديين حين يقرءون هذا التفسير يقولون إن المولوي محمد علي قد أتى بحكمة رائعة، ولكن الواقع المؤسف أنه لم يُشرْ هنا إلى الخليفة الأول ﷺ الذي ذكَر هذه النقطة الرائعة أول مرة، بل نسبها إلى نفسه. ثم إنه لم يذكر ما ذكره الخليفة الأول ﷺ بشكل كامل؛ حيث ترك من تفسيره ﷺ ذلك الجزء الذي قال فيه: كما أن الطبيب الحاذق يغيّر الوصفة بتغير حالة المريض، كذلك قد غيّر الله تعالى الوصفةَ حسب ظروف الناس، فوصف لهم الآن الوصفة الزيتونية مكان الوصفة التينية. وهذه نقطة رائعة جدًا، لأن الرسول ﷺ قد جاء بشريعة جديدة، فنشأ السؤال الطبيعي: ما الداعي لنسخ الشريعة الموسوية وإنزال الشريعة المحمدية مكانها؟ فأجاب الله تعالى بأنكم تعلمون أن الطبيب لا يصف للمريض وصفة واحدة دومًا، بل إن الطبيب الحاذق يغيّر الوصفة بتغيُّر حالة المريض، فتارةً يصف له التين، وتارةً أخرى يصف له الزيتون، وحينًا يصف له دواءً وحينًا آخر يصف له دواء آخر. ترون هذا كل يوم في الدنيا، فلماذا تعترضون على فعل الله هذا؟ ولماذا تنتابكم الشكوك والشبهات على إنزال الشريعة المحمدية مكان الشريعة الموسوية؟

باختصار، إن هذين المفهومين اللذين ذكرهما المولوي محمد علي إنما هما من المعارف التي ذكرها الخليفة الأول ﷺ، وقد ذكرهما محمد علي بصورة ناقصة، كما أنه لم يشر إلى حضرته بأنه صاحب هذه المعارف، مع أن الأمانة تفرض عليه ذِكر اسمه.

لقد سمعتُ من الخليفة الأول ﷺ أن التين والزيتون إشارةٌ إلى المسيح عليه السلام، والطور إلى موسى عليه السلام، والبلد الأمين إلى الرسول ﷺ، فهذا يعني أنه قد أيد المعنى الذي ذكره ابن كثير.

قد تبيّنَ من المعاني التي ذكرها المفسرون السابقون أن طبائع العلماء قد مالت من البداية بشدةٍ إلى اعتبار التين والزيتون استعارةً. لا شك أن بعضهم قالوا أن التين والزيتون هنا ماديان، ولكن معظمهم اعتبروهما مجازًا واستعارةً وذكروا لهما معاني مبتكرة، فاعتبرهما بعضهم إشارةً إلى بيت المقدس، وبعضهم إلى فلسطين، وبعضهم إلى المسجد الأقصى ومسجد نوح.

لا شك أن هذا الأسلوب تحكُّمٌ وتعنُّتٌ يفتح بابًا واسعًا للتأويلات البعيدة، ولكن فيما يتعلق بقول البعض إن هناك حذف مضافٍ، فلا يمكن أن يُتَّهموا باتخاذ موقف غير معقول؛ إذ لم يجانبوا الصواب، لأن من قواعد العربية حذف المضاف والاكتفاء بذكر المضاف إليه. فما الحرج إذا قلنا إن المضاف هنا محذوف؟ فقد ورد في القرآن أن إخوة يوسف عليه السلام قالوا لأبيهم ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾(يوسف:٨٣). مع أن الجميع يعرف أن القرية أو العير لا تتكلم. إن كلامهما مستحيل وغير مقبول عقليا، ولكن القرآن يقول إنهم قالوا لأبيهم اسألِ القرية والعير! فتبينَ من ذلك أنهم يعنون: اسألْ أهل القرية وأهل العير. وهناك أمثلة كثيرة أخرى على حذف المضاف في القرآن، غير أنه لا بد من قرائن قوية في مثل هذه الاستعمالات، أما إذا فسرناها بدون قرائن قوية اختلط الحابل بالنابل والمعقول بغير المعقول. والقرينة الواضحة في قوله تعالى ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ هي أن القرية أو العير لا تتكلم، فما دام هذا محالا فثبت أنه ليس المراد من سؤال القرية أو العير إلا سؤال أهل القرية وأهل

العير، فإذا سألهم اتضحت عليه الحقيقة. كذلك إذا كان البعض قد قال في تفسير قوله تعالى ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ أن المراد بهما المناطق التي يكثر فيها التين والزيتون (فتح البيان)، فلا غرابة في ذلك ولا حرج، إذ لا بد للقرآن من استخدام التعابير العربية والأسلوب العربي، وما دام حذف المضاف هو من قواعد العربية، فلا مانع من أن يستخدم القرآن هذا الأسلوب. أما ما هي القرينة القوية هنا، فالجواب أنها كلماتُ ﴿طُورِ سينينَ﴾ و﴿وهذا البلدِ الأمينِ﴾، إذ الثابت من القرآن أن الطور ومكة مكانان نالا التكريم بسبب نبيين؛ فما دام الأمر كذلك فإن العقل يهدينا أيضًا إلى أن التين والزيتون -وقد عطف عليهما الطور والبلد الأمين- إشارةٌ إلى مكانٍ أو شيءٍ ذي علاقة بنبي، ولذلك ذكرهما الله تعالى آيةً ودليلاً على قدرته وعظمته، كما هو الطور ومكة.

أما الجواب الذي ذكره ابن كثير في الرد على السؤال القائل: لماذا أشير إلى عيسى عليه السلام هنا أولاً؟ فلا شك أنه جواب لطيف يدل على دقة نظره.

أما المعنى الذي ذكره المولوي محمد علي فقد سبق أن ذكرتُ أن الخليفة الأول رضي الله عنه هو صاحب هذا المعنى، ولكن المولوي محمد علي سرقه منه ونسبه إلى نفسه. ولا يسع أحدًا أن ينكر أن المعنى الذي ذكره الخليفة الأول رضي الله عنه لطيف جدا.. أي أن أُمّةً شُبِّهت هنا بالتين وأخرى بالزيتون، حيث بين الله تعالى أنه وَصَفَ الوَصْفة التينية في وقت والوَصْفة الزيتونية في وقت آخر، لأنه طبيب حاذق، والطبيب الحاذق يغيّر العلاج بحسب حالة المريض.

وأقول إن هناك مفهومًا إضافيًّا، وهو أن التين حلوُ المذاق ولكنه يفسد بسرعة، أما الزيتون فلا ينفع كإدام فحسب، بل إن زيته يُستعمل بكثرة في الطعام ويوضع في المخللات لكي تبقى صالحة فترة طويلة. هذا يعني أن التين لا يبقى على حاله طويلا، أما الزيتون فهو يحافظ على الأطعمة الأخرى أيضًا، وبهذين المثالين قد أشار الله تعالى إلى أن التعليم الموسوي عرضةٌ للفساد مثل التين، أما أنت يا محمد فنعطيك تعليما سيظل محفوظا من الفساد والخراب، ولسوف يولِّد في العقل الإنساني نورًا يستنبط به من هذا الكتاب علومًا ومعارف جديدة، حيث قال الله تعالى في سورة

النور وهو يشيد بزيت الزيتون ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾(النور:٣٦).. أي أن هذا الزيت عالي الجودة بحيث يكاد يضيء تلقائيا وهو بعيدٌ عن النار. ولا شك أن تشبيه كلام الله تعالى بمثل هذا الشيء الرائع يعني أن الكلام الذي سينزل الآن للدنيا سيكون سببًا لنشر العلوم والمعارف الجديدة ولتبديد ظلمات الجهل والمعصية.

ويوجد في المفهومين المذكورين آنفًا ترتيب طبيعي حيث يشير أحدهما إلى درجة هؤلاء الأنبياء والآخر يشير إلى زمانهم.

ثم يقول الله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.. أي أن هذه الأمثلة تدل على أن الله تعالى قد خلق الإنسان بقوى معتدلة جدا، فكلما بعث الله نبيًا آمن به الناس في نهاية المطاف.

أما المعنى الأول الذي ذكره المفسرون نظرًا إلى النبوءة التوراتية القائلة: جاء الله من طور سيناء وأشرق من ساعير واستعلن من جبال فاران (التثنية٣٣: ٢)، فلو اعتبرنا هذه الآيات إشارة إلى هذه النبوءة فسيعني قوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أنكم لو درستم أحوال أي نبي من هؤلاء فلا بد لكم من الاعتراف أنه قد انتصر في نهاية المطاف. لا شك أن الدنيا عارضتهم في البداية وبذلت كل ما في وسعها للقضاء عليهم، ولكنها اضطرت في الأخير للإيمان بتعاليمهم، مما يدل على أننا قد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم. لقد جاء موسى وكتبنا له النصر، لقد جاء عيسى وكتبنا له الغلبة، والآن قد جاء محمد ولا تؤمنون به، ولكن سيأتي يوم تضطرون فيه للإذعان لتعاليمه، فيعلم الناس أننا ﴿خَلَقْنَا الإنسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

باختصار، إن المعنى الذي ذكره الخليفة الأول ﷺ رائع جدا، وكذلك ما ذكره المفسرون القدامى من معان هي رائعةٌ حقًا، ولكني لما تدبرتُ هذه السورة أكثرَ لأرى ما إذا كانت تحتوي على معان أخرى بالإضافة إلى هذه المعاني الرائعة الواضحة، وهبني الله تعالى علمًا جديدا، فعرفتُ أنها لا تتحدث عن عصرين أو ثلاثة، بل عن أربعة عصور، وهكذا قد بيّن الله فيها موضوعا لطيفا للغاية ذا علاقة

وثيقة بقوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾. لا شك أن معاني هذه الآية تنطبق تمامًا على عصور موسى وعيسى ومحمد ﷺ ولكنها لا تنطبق على العصور الأخرى كلها، ولو انطبقت على العصور كلها أصبحتْ دليلا أقوى وأوضح وأدعى لكشف حُسْن القرآن الكريم وعظمته.

والتدبر يكشف لنا أن الله تعالى يتحدث عن الهجرة منذ عدة سور، حيث أخبر رسولَه أولاً أنه لا بد له من الهجرة، ثم أخبره كيف تتم هجرته، ثم بيّن كيف تتم له الغلبة بعد الهجرة وأخبره كيف يصبح الكفار مغلوبين وكيف ينال الإسلام الشوكة والعظمة. هذا الموضوع بدأ من سورة الفجر ثم تناولته كل سورة بعدها تلميحًا أو تصريحا. عندما يهاجر المرء يقول العدو ضاحكًا: ها هو ذا قد انهزم وهرب وصار مغلوبا. ولو قال للعدو: إني مهاجرٌ اليوم ولكني سأعود بعد فترة منتصرًا، احتقره العدو أيضا وضحك عليه قائلا له: كيف أصدّق أنك سترجع منتصرا؟ إن ما أعرفه هو أنك تفرّ من أمامي الآن معترفًا بهروبك. باختصار، يفرح الشيطان بهجرة النبي إذ انتصر هو وانهزم النبي في الظاهر. وكأن الهجرة تصبح علامة ظاهرة لانتصار الشيطان، فيخاف ضعاف الإيمان ويتساءلون: لعلّ هذه الجماعة التي تدعي أنها من عند الله ستهلك وتباد. لقد كان مؤسسها يقول لنا إنا سننتصر على العدو، ولكنه الآن بنفسه يفرّ خوفًا منه. فحيث إن الهجرة انتصار ظاهر للشيطان، وتُزعزع ضعاف الإيمان فضرب الله هنا أربعة أمثلة لهجرة الأنبياء وبيّن أن الشيطان هزم أنبياء الله ظاهرا ثلاث مرات في الماضي، وقام بمضايقتهم حتى أخرجهم من أوطانهم، ولكن ماذا كانت النتيجة؟ لقد سترهم الله تعالى، وبدَّل هزيمتهم فتحًا؛ وهذا ما سيحدث الآن أيضا. فاعلموا، أيها الكافرون، أنكم ستؤذون رسولنا حتى يضطر للهجرة، فتفرحون بهجرته، ولكنكم ستلقون الخزي والهوان في الأخير. وها نحن نضرب لكم ثلاثة أمثلة من التاريخ، حيث أخرج الشيطان أنبياء الله تعالى من أوطانهم، وفي كل مرة لقي الذل والهوان في نهاية المطاف، وكانت هجرة الأنبياء من أوطانهم سببًا لهلاك أعدائهم.

والمثال الأول هو مثال آدم عليه السلام. لقد انهزم آدم من الشيطان في بادئ الرأي، ذلك أن الله تعالى كان قد نهاه عن الاقتراب من شجرة، ولكنه اقترب منها بإغواء الشيطان، فتعرضَ لأنواع الأذى والمحن. يقول الله تعالى مشيرًا إلى هذا الحادث: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى * فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ (طه:١١٨-١٢٣). وقوله تعالى ﴿لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى﴾ يعني أنك لن تعاني من العطش والحرّ. وأما قوله تعالى ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ... ﴾ فيعني أن الشيطان استشاط غضبًا عندما قال الله لآدم ما قال، ففكّر الشيطان أن الله تعالى يبشر الآن عن انتصار آدم عليه، فجاء إلى آدم متنكرًا وقال: هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةٍ إذا أكلتَ منها نلتَ حياة الخلود؟ وهل أدلّك على مُلْكٍ لا يفنى ولا يباد؟ فانخدع آدم عليه السلام من كلامه المعسول، فأكل هو وزوجُه.. أي جماعتُه أو زوجتُه.. من تلك الشجرة. ولما كان عمله هذا خلافًا لمشيئة الله تعالى، ظهرت نتائجه السيئة فورا؛ فأدرك آدم أنه قد ارتكب خطأ كبيرا بمخالفته المشيئةَ الإلهية. لقد كان يظن أن هذا هو طريق الفلاح، ولكن ما حصل هو أنه لما انصاع للعدو تضاعفت مشاكله وتوقفتْ فجأةً الانتصارات التي كان يحققها من قبل.

ولم تكن الحيلة التي احتالها الشيطان لإغواء آدم إلا أنه قال له: سوف تنفعك أواصرنا الثنائية كثيرًا، حيث نزداد قرابةً وصداقةً ومحبةً ووئامًا مما يساعدك على الرقي بسرعة. ثم قال له: أليس الله تعالى يريد لك الرقي سريعا؟ متى كره الله تعالى هذا الرقيّ لك بتوطيد العلاقات بيننا وإزالة الغربة من بيننا؟ فأُعجب آدم عليه السلام بكلامه ووقع في فخه وتصالح مع عدوه هذا. وما أن تصالحَ حتى توقفت انتصاراته ونجاحاته فجأةً وظهرت النتائج السيئة لاختلاطه بعدوه. وإلى ذلك يشير الله تعالى بقوله ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾.. أي انكشفت عليهما عوراتهما بأكل ثمر تلك

الشجرة، وظهرت لهما عواقب تصرفهما، فأحسّ آدم أنه قد ارتكب خطأً فادحًا بمَدِّ يدِ المحبة والصلح إلى الشيطان، فحاول تفاديَ خطئه، ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾.. أي أخذ هو وزوجه يغطّيان نفسيهما بورق الجنة. ﴿وعصى آدمُ رَبَّه فَغَوَى ﴾.. أي وقع في البلاء والمعاناة. ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾.. أي هداه وجماعته طريق النجاح.

فترى هنا أن الشيطان قد هزم آدم في الظاهر بخداعه، ولكن آدم لم يلبث أن بدأ يغطي نفسه بورق الجنة، فتبدلتْ هزيمته فتحًا، وانتصر آدم في نهاية المطاف.

ومن معاني الورق: الزينةُ، حيث ورد في القاموس: الورق: جمالُ الدنيا وبهجتها. وكذلك يعني الورق النسل، يقال أنت طيّبُ الورق، أي طيب النسل (الأقرب). ونظرًا إلى هذين المعنيين سيكون لقوله تعالى ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ مفهومان: أولهما: أن آدم عليه السلام بدأ يستر نفسه بزينة الجنة وجمالها، وثانيهما: أنه حاول التصدي لخداع الشيطان من خلال نسله الطيب، فانتصر عليه في النهاية.

وهنا ينشأ سؤال: ما العلاقة بين ورق الجنة والتين، فإن ورق أي شجرة يمكن أن يُسمّى ورق الجنة؟

الجواب: أولاً: عندما نتوجه إلى علم تأويل الرؤيا نجد أن "التين في المنام يفسَّر بالصلحاء وخيار الناس" (تعطير الأنام في تعبير المنام للنابلسي: التين). وهذا هو معنى ورق الجنة، لأن الورق هو النسل الطيب، وورق الجنة يعني النسل الطيب في الجنة، وهم الصلحاء والمؤمنون. فورق الجنة بحسب تعبير الرؤيا يعني ورق التين.

والآن هلمّ ننظرْ ما إذا كانت لقصة آدم عليه السلام علاقة خاصة بالتين؟ ونقرأ في التوراة ما يلي: "وَكَانَتِ الْحَيَّةُ أَحْيَلَ جَمِيعِ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي عَمِلَهَا الرَّبُّ الإِلهُ، فَقَالَتْ لِلْمَرْأَةِ: «أَحَقًّا قَالَ اللهُ لا تَأْكُلاَ مِنْ كُلِّ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟» فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِلْحَيَّةِ: «مِنْ ثَمَرِ شَجَرِ الْجَنَّةِ نَأْكُلُ، وَأَمَّا ثَمَرُ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ فَقَالَ اللهُ: لا تَأْكُلا مِنْهُ وَلا تَمَسَّاهُ لِئَلاَّ تَمُوتَا». فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: «لَنْ تَمُوتَا! بَلِ اللهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلانِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ». فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ

أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلأَكْلِ، وَأَنَّهَا بَهجَةٌ لِلْعُيُونِ، وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ، فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ، وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا أَيْضًا مَعَهَا، فَأَكَلَ. فَانْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُمَا وَعَلِمَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَانِ. فَخَاطَا أَوْرَاقَ تِينٍ وَصَنَعَا لأَنْفُسِهِمَا مَآزِرَ." (التكوين ٣: ١-٧)

أي أن الشيطان لما احتال لإخراج آدم عليه السلام من الجنة لفّ آدم ورق الجنة حوله، وهكذا ستر عورته المنكشفة. ولقد سبق أن بيّنّا أن ورق الجنة وورق التين شيء واحد حسب تأويل الرؤيا، لأن التين يعني الصلحاء والمؤمنين، وكذلك ورق الجنة يعني النسل الطيب في الجنة، وهم الصلحاء والأطهار. فالتوراة والقرآن متفقان على أن الشيطان لما نجح في خداع آدم، لفَّ آدم ورق التين حوله، أي لما حاول الشيطان إفشال الخطة الإلهية بعقد صلح مع آدم، انتبهَ آدم إلى خطئه فجأةً، فضمّ إليه جماعة المؤمنين وخيّب بمساعدتهم كيد الشيطان. لقد أراد الشيطان أن يهزم آدم بهذه المكيدة، ولكن بدلاً من أن يؤدي تصرف آدم هذا إلى فساد، تولدت فيه صحوة جديدة فقطع أشواطا حثيثة في مجال الرقي، وذلك كما قال الله تعالى ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾.. أي أنه تعالى عاد عليه برحمته وكتب له مزيدا من الرقي. ومثاله ما فعله بنا حزبُ "الأحراريين"* عام ١٩٣٤م، حيث أثاروا فتنة كبيرة ضد الأحمدية ليسحقوها ويقضوا عليها، لكن فتنتهم تسببت في صحوة جماعتنا وتقدُّمها، فازدهرت أضعافا مضاعفة. كذلك لما كاد الشيطان لآدم عليه السلام وجماعته للقضاء عليه، كشف الله تعالى لآدم شرّ مكيدته، فانفتحت عيونه وبصيرته، فلفَّ حوله ورق الجنة فورًا وأعلن للعدو أن اتحادنا معك محال، فلا يمكن أن تضمونا

* حزب الأحرار أو الأحراريين طائفة من المشايخ وأتباعهم المتعصبين المتطرفين الذين اشتهروا بولائهم للهنادك في الهند ومعارضتهم الشديدة لفكرة تأسيس باكستان، ومخالفتِهم للقائد الأعظم محمد علي جناح مؤسس باكستان حيث كانوا يسمونه "الكافرَ الأعظم". لقد انضم هؤلاء إلى حزب المؤتمر الهندوسي المعارض لتأسيس باكستان كدولة مستقلة للمسلمين. ولكن عندما تأسست باكستان فروا إليها وحاولوا بكل وقاحةٍ الوصولَ إلى الحكم بطرق شرعية وغير شرعية. كما إنهم أعداء ألداء للجماعة الإسلامية الأحمدية، وهاجموا في ١٩٣٤م مركزها في قاديان بغية تدميرها بمساندة الحكام الإنجليز. (المترجم)

إليكم باسم الصلح والسلام. لقد جعل الله تعالى لنا سبيلاً غير سبيلكم، فلن تتخذ جماعتنا سبيل المداهنة ولن تصادق على ما تقولون. ومنذ ذلك الحادث سنّ الله تعالى قانونًا أبديًا أن جماعة المؤمنين ستبقى منفصلة عن الكفار. كان الله تعالى قد أمر المؤمنين ألاّ يقعوا في خداع الشيطان قبل مكيدته هذه أيضًا، ولكن لما حدث مع آدم ما حدث، سنّ الله قانونًا أبديًّا أن من واجب جماعات الأنبياء أن يعيشوا بعيدين عن الشيطان وأظلاله.

هناك أحكام تبدو جديدة، ولكنها ليست كذلك في الحقيقة، فمثلاً قد أُمر أفراد جماعتنا ألا يُصلّوا وراء غيرهم، ولا يتزاوجوا منهم، ولا يُصَلّوا على موتاهم، فيقول الطاعنون: لماذا أُوتيتْ جماعتنا هذه التعليمات الصارمة؟ إن هؤلاء لا يدرون أنها ليست أحكامًا جديدة، بل هي نفس الأحكام التي نزلت في زمن آدم. لم تكن هذه الأحكام الإلهية قد نزلت حتى قبل إغواء الشيطان لآدم، ولكنه حين نجح في خداعه مرةً، سنَّ الله قانونًا أبديًّا أنّ على الجماعات الربانية أن يعيشوا منفصلين عن أعدائهم؛ ولذلك نجد أن كل نبي بُعث إلى الدنيا قام بفصل جماعته عن الآخرين، و لم يحدث قط أن سمح نبيّ لأتباعه بالاختلاط مع الأغيار.

باختصار، إن الشيطان كاد لآدم عليه السلام لإخراجه من الجنة، فاضطر للهجرة منها، ولكن الله منحه بعد ذلك التينَ (أي النسل الطيب من الصلحاء) فعملوا على نجاحه، حتى إنك لا تجد اليوم من أتباع إبليس أحدا، بينما تجد المؤمنين بآدم في كل مكان.

لقد تبين من هذه الفقرة التوراتية أن عورة آدم سُترت بورق التين، وهو الوحي بلغة المجاز، ولكن اليهود لم يفهموا الأمر فظنوا أن آدم تعرّى بالفعل ثم تغطّى بورق التين.

والواقع أن الله تعالى نهى آدم عليه السلام عن الاقتراب من شجرة، أي عن الاختلاط بتلك الحية وزملائها الذين كانوا من الجن –الحية تعيش تحت الأرض، كذلك كان هذا العدو لآدم هو رجل كهوف (cave man) أي الرجل الذي يسكن المغارات– فجاء وخدع آدم وقال له: إن مصلحتك تكمن في أكل ثمرتنا، أي بإنشاء العلاقات

معنا، والله تعالى أيضًا يريد منفعتك في الحقيقة، ولو تصالحتَ معنا لتحققت المشيئة الإلهية على أحسن وجه. فانخدع آدم عليه السلام بقوله وأنشأ صلات مع هؤلاء القوم فتضرَّر. ثم تستّر بورق التين بناءً على وحي الله وأمره، أي جمع حوله المؤمنين وقطع صلاته مع الكافرين، وهكذا تدارك المعاناةَ والضرر الذي أصابه نتيجة الهجرة. لقد انتصر عليه الشيطان في بادئ الأمر، أما في الحقيقة فإن آدم هو المنتصر إذ انتبه إلى أهمية تنظيم القوم، كما تهيأت له أسباب النهوض بدلاً من السقوط والتردي، وذلك كما قال الله تعالى ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ (طه:١٢٣).

فكأنما يقول الله تعالى لأهل مكة بقوله ﴿والتين﴾ تدبروا قصة آدم، فقد أغواه الشيطان حتى اضطر للهجرة وترك الجنة الأرضية التي كان فيها، ولكن اجتمعتْ حوله جماعة من المؤمنين نتيجة هذه الهجرة، فخيّب مكائد الشيطان كلية بمساعدة هؤلاء الأعوان. فيا أهل مكة، ستعاملون محمدًا هكذا تمامًا، ولكن لن تكون النتيجة هذه المرة إلا التي ظهرت في وقت آدم، فإن التين سيستر محمدا، وستجتمع حوله جماعة من الصلحاء نتيجة هذه الهجرة.

وقال موسى عليه السلام لربه ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾(طه: ٢٦)، أما محمد ﷺ فقد قال له ربه ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾(الشرح:٢). وكذلك أخبر الله هنا أن آدم بدأ يلفّ ورق التين حول نفسه لستر عورته، وأما محمد رسول الله ﷺ فالتفّ حوله ورق التين بنفسه، وقالوا له عند غزوة بدر: يا رسول الله، لسنا كأصحاب موسى حتى نقول لك اذهبْ أنت وربُّك فقاتِلا إنا هاهنا قاعدون، بل سنقاتل عن يمينك وعن شمالك ومن أمامك ومن خلفك، ولن يخلص إليك العدو إلا على جثثنا الهامدة. (البخاري، كتاب المغازي)

فما أعظمَ الفرقَ بين أتباع آدم وأتباع النبي ﷺ! لقد اضطر آدم عليه السلام ليلفَّ حوله ورق التين بجهده، أما رسول الله ﷺ الذي كان أعظم درجة من آدم فقد التفّ ورق التين حوله بنفسه.

باختصار، يقول الله تعالى هنا: أيها الكافرون، تظنون الهجرة هزيمة لمحمد وانتصار لكم! ألا ترون كيف أراد الشيطان في الماضي مرارًا أن يهزم أنبياء الله تعالى ولكنه مُنِيَ بالهزيمة في النهاية دوما. ومثال آدم بين أيديكم. لقد أخرجه الشيطان من الجنة فخرج منها، ولكن ماذا كان المآل؟ لقد تسببت هجرته في انتصاره، حيث جمع حوله ورق التين وأحبط مكائد العدو، فكذلك الآن ستحسبون أنكم قد انتصرتم بطرد محمد من مكة، ولكن هجرته نفسها ستؤدي إلى هلاككم وانتصاره، مما يكون دليلا على أن الله تعالى لم يخلق الإنسان ليخذله، بل ليكتب له الرقي والنجاح.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾، أي نضرب لكم مثال الزيتون في المقام الثاني. ومثال الزيتون إشارة إلى حادث نوح عليه السلام. لقد آذاه قومه أذًى شديدًا، فحل بهم العذاب في النهاية فهلكوا واضطر نوح للهجرة من عندهم. لقد ذكر الله هذا الحادث في القرآن بقوله ﴿وَأُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ * وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ * حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلا قَلِيلٌ * وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ * وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(هود: ٣٧-٤٥)

فترى أن نوحا عليه السلام أيضا هاجر من قومه ووطنه، وأمر ابنه أن يأتي معه تاركًا وطنه، ولكنه رفض وقال لا حاجة بي لترك الوطن، فإذا كنتَ تترك الوطن فاتركه،

أما أنا فسأصعد الجبل. مما يعني أن قوم نوح ظنوا أنهم لن يهلكوا، بل سيعيشون في الجبال في أمن ودعة بعد خروج نوح من بينهم شاكرين بأن البلاء (نوح) قد زال عنهم. فكانت النتيجة أن نوحًا نجا وهلك قومه الذين ظنوا هجرته انتصارا لهم.

لقد أشار الله تعالى إلى هذا الحادث بقوله ﴿والزيتون﴾.. أي لقد سمعتم قصة آدم من قبل، والآن فكِّروا في قصة نوح. لقد اضطر نوح للهجرة من وطنه بسبب معارضة قومه، ولكن أعداءه هم الذين هلكوا نتيجة هجرته، أما هو وأتباعه فوجدوا غصنًا من الزيتون، أي وجدوا رسالةَ السلام من الله تعالى وجماعةً متمسكة بالعروة الوثقى، أي قوية الإيمان كاملة الإخلاص والتضحية.

ونجد ذكر الزيتون في قصة نوح عليه السلام في التوراة حيث ورد: "ثُمَّ ذَكَرَ اللهُ نُوحًا وَكُلَّ الْوُحُوشِ وَكُلَّ الْبَهَائِمِ الَّتِي مَعَهُ فِي الْفُلْكِ، وَأَجَازَ اللهُ رِيحًا عَلَى الأَرْضِ، فَهَدَأَتِ الْمِيَاهُ، وَانْسَدَّتْ يَنَابِيعُ الْغَمْرِ وَطَاقَاتُ السَّمَاءِ، فَامْتَنَعَ الْمَطَرُ مِنَ السَّمَاءِ، وَرَجَعَتِ الْمِيَاهُ عَنِ الأَرْضِ رُجُوعًا مُتَوَالِيًا. وَبَعْدَ مِئَةٍ وَخَمْسِينَ يَوْمًا نَقَصَتِ الْمِيَاهُ، وَاسْتَقَرَّ الْفُلْكُ فِي الشَّهْرِ السَّابِعِ، فِي الْيَوْمِ السَّابِعَ عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ، عَلَى جِبَالِ أَرَارَاطَ. وَكَانَتِ الْمِيَاهُ تَنْقُصُ نَقْصًا مُتَوَالِيًا إِلى الشَّهْرِ الْعَاشِرِ. وَفِي الْعَاشِرِ فِي أَوَّلِ الشَّهْرِ، ظَهَرَتْ رُؤُوسُ الْجِبَالِ.

وَحَدَثَ مِنْ بَعْدِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَنَّ نُوحًا فَتَحَ طَاقَةَ الْفُلْكِ الَّتِي كَانَ قَدْ عَمِلَهَا وَأَرْسَلَ الْغُرَابَ، فَخَرَجَ مُتَرَدِّدًا حَتَّى نَشِفَتِ الْمِيَاهُ عَنِ الأَرْضِ. ثُمَّ أَرْسَلَ الْحَمَامَةَ مِنْ عِنْدِهِ لِيَرَى هَلْ قَلَّتِ الْمِيَاهُ عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ، فَلَمْ تَجِدِ الْحَمَامَةُ مَقَرًّا لِرِجْلِهَا، فَرَجَعَتْ إِلَيْهِ إِلى الْفُلْكِ لأَنَّ مِيَاهًا كَانَتْ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ، فَمَدَّ يَدَهُ وَأَخَذَهَا وَأَدْخَلَهَا عِنْدَهُ إِلى الْفُلْكِ. فَلَبِثَ أَيْضًا سَبْعَةَ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَادَ فَأَرْسَلَ الْحَمَامَةَ مِنَ الْفُلْكِ، فَأَتَتْ إِلَيْهِ الْحَمَامَةُ عِنْدَ الْمَسَاءِ، وَإِذَا وَرَقَةُ زَيْتُونٍ خَضْرَاءُ فِي فَمِهَا. فَعَلِمَ نُوحٌ أَنَّ الْمِيَاهَ قَدْ قَلَّتْ عَنِ الأَرْضِ. فَلَبِثَ أَيْضًا سَبْعَةَ أَيَّامٍ أُخَرَ وَأَرْسَلَ الْحَمَامَةَ فَلَمْ تَعُدْ تَرْجِعُ إِلَيْهِ أَيْضًا". (التَّكْوِينِ ٨ : ١-١٢).

فغصن الزيتون هو الذي كان بمثابة البشارة لنوح عليه السلام أن هجرته نجحت وأنه قد انتصر على أعدائه للأبد. وورق التين هو الذي أخبر آدم عليه السلام أنه قد نجح

وانتصر على عدوه. وإلى هذين الحدثين قد أشار الله تعالى بقوله ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾.. أي أننا نخبركم أن آدم كان نبينا الأول الذي اضطره الشيطان للخروج من الجنة والهجرة منها، ولكن هجرته لم تجلب له ضررا، ولم تسبب للمؤمنين فشلا. لا شك أن آدم هاجر، ولكنه انتصر في نهاية المطاف وكُتب للشيطان الفشل. كذلك يا أهل مكة، تريدون إخراج محمد من بلدتكم، ولكن اعلموا أنكم قد أصبحتم بأفعالكم هذه مثيل الشيطان الذي أخرج آدمَ من الجنة، وأن رسولنا هذا الذي بعثناه إلى الدنيا لخلق مخلوقات روحانية جديدة هو مثيل آدم، وإذا اضطررتموه للهجرة فسوف يهيئ الله له ورق التين كما هيّأ لآدم، أي يعطيه جماعة من الصالحين الطيبين يعرفون مكانته ويضحّون في سبيله بكل غال ورخيص. وإذا كنتم مثيل أعداء نوح، فاعلموا أنه هاجر ولا شك، ولكن الله تعالى أغرق أعداءه وبشّره بالنجاة بغصن الزيتون، كذلك إذا أخرجتم محمدا من بلدتكم فسوف تغرقون كقوم نوح، وسوف تستقر سفينة محمد على جبل الجوديّ، وسوف يعطيه الله تعالى غصن الزيتون. ماذا كانت المدينة المنورة؟ كانت جُوديًّا استقرّتْ عليه سفينة محمد رسول الله ﷺ. ومن كان أنصار المدينة؟ إنهم غصن الزيتون الذي أُعْطِيَه رسول الله ﷺ، فقد ورد: "مَن رأى ورق الزيتون في المنام فقد استمسك بالعروة الوثقى" (تعطير الأنام في تعبير المنام للنابلسي: الزيتون). فإعطاء ورق الزيتون للنبي ﷺ يعني أن الله تعالى سيهب له جماعة متمسكة بالعروة الوثقى، أي قوية في إيمانها وكاملة في تضحيتها وطاعتها بحيث لا تزعزعها المِحَن والمصائب. والحق أن التمسك بالعروة الوثقى نتيجة طبيعية للإيمان بالله تعالى، فإن الذي يكون قلبه عامرًا بالإيمان حقًا يتمسك بأحكام الله بقوة بحيث لا يزعزعه عن مكانه أعنف طوفان وزلزال، بل يكون فارسَ الميدان وتجسيدا للشجاعة والثبات، ويرى الموت في سبيل الله تعالى أروعَ نعمة وألذَّها.

فالله تعالى يعلن هنا أننا نذكّركم بحادث التين وحادث الزيتون، ففي الحادثين هاجر نبيّانِ وفشِل الشيطانُ. فقد هاجر آدم، لكنه انتصر على عدوه في النهاية، وقد هاجر نوح لكنه انتصر على عدوه، ولم يُسكَنْ بَعْدَه بلدُه الذي هاجر منه.

كذلك ستدمَّرون بعد هجرة محمد من هذه البلدة ولن يكون لكم إلا اللعنة والبُعد كما كان للشيطان، وأما محمد فيُمنح ورق التين. سوف تغرقون كأعداء نوح، وأما محمد فيتقدم إليه أهلُ المدينة بأغصان الزيتون في أيديهم ويقولون: يا رسول الله، هلمّ إلينا وشرِّفْنا، فسوف نفديك بأرواحنا ونريق دماءنا بدل عرقك.

باختصار، يقول الله تعالى للكافرين، أنسيتم غصن الزيتون الذي أُعطيه نوح بعد هجرته؟ إنكم لا تعرفون أن غصن زيتون يُعَدُّ لمحمد (ﷺ)، مما يكون دليلا على صدق قولنا ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾. فما دمنا قد خلقنا الإنسان بفطرة نقية، فلا يمكن أن يظل محروما من الخير فترة طويلة.

وبعد الزيتون أقسم الله بطور سينين، بمعنى أنه تعالى قدّمه أيضا شهادةً.

ما هو السينين؟ إنها منطقة في برية سيناء. إنها محلّ اهتمام المسلمين لورود ذكرها في القرآن الكريم، كما هي محلّ عناية الكتّاب الأوروبيين لورود ذكرها في الكتاب المقدّس. وهناك اختلاف كبير حول موقع الطور وموقع سيناء، فيرى بعض المؤرخين أن برية سيناء واقعةٌ في شمال شرق مصر. ويرى هؤلاء أن حادث عبور موسى (عليه السلام) للبحر قصة زائفة، لأن البحر واقع بين مصر وفلسطين في الجنوب، وأن موسى لم يذهب إلى هناك، إنما خرج من مصر ناحية الشمال. بينما يرى الآخرون أنّ برية سيناء تقع في شمال خليج العقبة في الأرض الواقعة ما بين مصر وفلسطين. ويرى فريق منهم أن برية سيناء قريبة من فلسطين. وقد أنكر البعض وجود سيناء والطور كلية واعتبروا هذه القصة زائفة لا حقيقة لها. (الموسوعة اليهودية: المجلد ١٠: تحت كلمة Sinai mount)

لقد استعمل القرآن الكريم لفظ الطور ومعناه الجبل، وقوله تعالى ﴿طُورِ سِينِينَ﴾ يعني جبلُ سيناء. ويتضح من القرآن أنه لا يعتبر الطور اسمًا لذلك الجبل، بل يستخدم الطورَ بمعنى أي جبل. قال الله تعالى في أول سورة الطور ﴿وَالطُّورِ * وكِتابٍ مَسْطُورٍ﴾، فعرّف الطورَ، أما هنا -في سورة التين- فلم يعرّفه. وقد عرّف الطورَ في سورة الطور ليقول لنا إننا نشير إلى طور موسى أو طور سيناء الذي تعرفونه، ولم يُعرّف الطور هنا لأنه مضاف إلى سينين. ومهما يكنْ، فلا يسع أحدًا

إنكار أن الطور ليس بعَلَمٍ ولا يعطي معنى خاصا إلا بالإضافة، شأنه شأن كلمة (الجبل) إذ يعني أي جبل، وإذا أردنا تحديد جبل معين قلنا مثلاً: جبال الهملايا أو جبال كشمير أو جبال هزاره أو جبال أفغانستان أو جبل ممر خيبر. فالمراد من طور سينين ذلك الجبل الموجود في برية سيناء الذي وقع به حادث خاص لموسى عليه السلام، وقد عُرّف الطور في قوله تعالى ﴿والطورِ * وكتابٍ مسطورٍ﴾ إشارةً إلى هذا الجبل، وقد أخطأ المفسرون الذين ظنوا أن الطور اسم عَلَمٍ لجبل معين. إنما معنى الطور: الجبلُ فقط، وبهذا المعنى قد استعمله القرآن الكريم، ولكن في الاصطلاح استُخدم الطور بمعنى خاص لواقعة مع موسى عليه السلام. الواقع أن الشيء يكون عاما، ولكنه يُستخدم أحيانًا بمعنى خاص لمناسبة ما؛ خذوا مثلاً لفظ الكتاب، فهو لفظ عام يطلق على أي كتاب، لكن في العُرف والاصطلاح أصبح لفظًا خاصا يطلق على التوراة والإنجيل. وهذا لا يعني أن المعنى الحرفي للكتاب هو التوراة والإنجيل، بل لأن هذا اللفظ يُطلق على هذا الكتاب منذ فترة طويلة، فصار الناس يستعملونه بكثرة بهذا المعنى حتى صار يفُهم منه الآن الكتاب المقدس. أو خُذوا مثلاً لفظ الإنجيل، فمعناه البشارة، وبهذا المعنى استعمل في البداية، أي البشارة التي بشّر بها عيسى عليه السلام قومه، ولكنك لو استخدمتَه اليوم بمعنى البشارة فلن يفهمك الناس، بل يتبادر إلى أذهان الجميع كتابُ عيسى عليه السلام، مع أن المعنى الحرفي لهذا اللفظ هو البشارة فقط. كذلك فإن "طور سيناء" يعني جبل في سيناء، ولكن لما كثر على ألسنة الناس استعمال جبل سيناء الذي نزل عليه كلام الله على موسى، صار يُفهم من الطور ذلك الجبل الذي وقع فيه هذا الحادث خاصة، مع أن كلمة الطور يمكن أن تُطلق على أي جبل.

لقد ذكرت آنفًا أن المؤرخين قد اختلفوا كثيرا في تحديد موقع سيناء، بل لقد أنكر بعضهم وجود منطقة بهذا الاسم، بينما يسلّم غيرهم بوجود منطقة بهذا الاسم، ولكنهم يختلفون في تحديدها اختلافًا شديدا. وأكبر سبب لهذا الاختلاف هو أن بعض الناس يحبّون أن يأتوا بالجديد دائمًا، وإشباعًا لرغبتهم هذه يعرضون على الناس نظرية جديدة غاضّين الطرف عن كل الحقائق والوقائع ليُعَدّوا من

الباحثين الذين يأتون باكتشافات جديدة. فكل يوم نسمع أن بعض الناس عندما سمع أن فلانا اخترع الاختراع الفلاني داعبه الشوق لاختراع شيء ما، فخطرت بباله أفكار وخيالات شتى، فلم يلبث أن أعلن في الجرائد أنه قد اخترع كذا وكذا، وتبينَ بعد فحص الأمر أنه لم يخترع شيئا، إنما قدّم نظرية جديدة. كذلك تمامًا فكّر بعض المؤرخين أنهم إذا قالوا إن موسى عليه السلام ذهب إلى الشمال، وأن سيناء أيضا تقع في الشمال، فيُذكَرون في التاريخ من الباحثين الذين أتوا باكتشافات مثيرة، فرفضوا أقوال الآخرين بناءً على شبهات بسيطة فرحين بنظريتهم الجديدة ظنًا منهم أنه كلما بحث في هذه القضية قال الناس إن فلانا قدّم نظرية كذا فلنضعْها أيضًا في الاعتبار عند التحقيق. فمثل هؤلاء القوم لا يريدون سرد التاريخ سردًا صحيحًا، إنما يريدون الشهرة والصيت فحسب، فبدلاً من التدبر في الحقائق ودراستها، يريدون أن يُعرَفوا بين الناس، وهؤلاء هم القوم الذين يقولون أحيانًا أنه لم يكن هناك شخص باسم موسى ولا باسم عيسى، أو ليس هناك منطقة باسم سيناء، أو لم يكن هناك شخص باسم زرادشت أو كرشنا أو رام تشندر. وعندي أن هذه أيضا معجزة الإسلام؛ إذ يوجد هناك شخصية واحدة لم ينكروا وجودها وهي شخصية نبينا محمد ﷺ. فيوجد بين النصارى من أنكروا وجود عيسى عليه السلام نهائيا قائلين إنها شخصية مجازية فقط لا حقيقة لها. وكذلك قد أنكر البروفيسور فرويد اليهودي وجود موسى عليه السلام (The life and work of Sigmund Freud; p.31). ويوجد بين الهندوس من أنكر وجود كرشنا ورام تشندر بتأثير هؤلاء الأوروبيين المشككين. كما يوجد بين الزرادشتيين من ينكرون وجود زرادشت ويعتبرون قصته مجازا فحسب. وإذا كان هناك نبي لم ينكروا وجوده فإنما هو نبينا العظيم محمد ﷺ. وفيه حكمة ربانية بالغة في رأيي؛ فكأن الله تعالى قد أخبر بذلك أنه إذا كان هناك شخصية جديرة بالاهتمام والعناية فإنما هو محمد ﷺ فقط، أما باقي الأنبياء فلو أنكرتم وجودهم جميعًا فلا ضير ولا حرج.

باختصار، لقد أنكر البعض وجود الطور وبعضهم وجود سيناء، وأما الذين يقولون بوجود الطور فيقولون إنه اسم جبل يقع في جنوب برية سيناء وشمال خليج

العقبة، وطوله ثلاثون أو أربعون ميلا (الموسوعة اليهودية: المجلد ١٠ تحت كلمة: Sinai mount). لكن الواقع -كما قلت من قبل- إن "طور" ليس اسم جبل معين، بل معناه الجبل، أيُّ جبل، ويشار به خاصةً إلى الجبل الذي عليه نزل الوحي على موسى عليه السلام، وحيث إن آلاف الناس قد ذكروا هذه الحادثة فصار لفظ الطور عَلَمًا لذلك الجبل. باختصار، هناك جبل في شمال خليج العقبة حيث كلّم الله موسى عليه السلام، والثابت من التاريخ أن اليهود كانوا يزورون هذا الجبل دائما. (الموسوعة اليهودية: المجلد ١٠ تحت كلمة: Sinai mount)

وعندي أن ما يثبت من القرآن الكريم والتوراة هو أن البرية الواقعة شمال خليج العقبة هي سيناء، وفيها يقع ذلك الجبل الذي يُسمى الطور في العرف العام. وإني لأتعجب دائما من المؤرخين الذين ينكرون وجوده؛ فإن هذه المنطقة ثابتة حسب القرآن والتوراة، كما يخبرنا التاريخ أن اليهود كانوا يزورون هذا الجبل دائما؛ فكيف يحق لمؤرخ أن يقول إنه ليس هناك جبل باسم طور، ولا وجود لمنطقة باسم سيناء؟

وهنا سؤال يطرح نفسه: لقد استعمل الله هنا لفظ ﴿سِينِينَ﴾، بينما قال في سورة أخرى ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلآكِلِينَ﴾ (المؤمنون:٢١)، فلماذا قال في موضعٍ ﴿سِيناءَ﴾ وفي موضعٍ ﴿سِينِينَ﴾؟ وقد أجاب البعض بأن سيناء وسينين عَلَمانِ لهذا الموضع. بينما أجاب بعض المفسرين إن الله تعالى قال "سينين" بدل "سيناء" مِن أجل السجع، ومثاله كلمةُ "إلياس" في قول الله تعالى ﴿سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾(الصافات:١٣١)، فمع أن المراد هنا هو إلياس، إلا أن الله تعالى أضاف معه ياءً وسينًا من أجل السجع. (روح البيان)

وهذا التخريج ليس صحيحا عندنا، حيث تؤمن جماعتنا أن الله تعالى قد قال هنا ﴿إل ياسين﴾ بدل "إلياس" إذ أرادَ هنا ذكرَ أكثر مِن إلياس واحد، فهناك نبي اسمه إلياس الذي كان زمنه في وسط الأنبياء الإسرائيليين، ثم هناك إلياس آخر وهو يوحنا المعمدان الذي جاء قبيل بعثة عيسى عليه السلام، وهناك إلياس ثالث هو حضرة السيد أحمد البريلوي الذي جاء قبيل ظهور المسيح الموعود عليه السلام. وحيث إن

إلياسَيْنِ جاءا قبل نزول القرآن وكان هناك إلياس ثالث سيأتي بعد ذلك، فأشار الله إليهم جميعًا بقوله ﴿سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾ بدلاً من أن يقول (وسلامٌ على إلياس). وبالمثل فقد يكون لفظ ﴿سِينِينَ﴾ جمعًا ويكون إشارةً إلى الاختلاف الموجود بين المؤرخين حول منطقة "سيناء"، كما يمكن أن يكون عند مختلف الشعوب مناطق يطلقون عليها اسم سيناء. فمثلا يُطلق العرب كلمة "الهند" على البنجاب وما حولها فقط، حيث نجد في بعض المصادر العربية مكتوبًا أنه يوجد في الهند كذا وكذا من الأشياء ويوجد في البنغال كذا وكذا من الأشياء، مع أن البنغال جزء من الهند حاليا، ولكنهم فرّقوا بينهما لأنهم كانوا يطلقون اسم الهند على البنجاب وما جاورها من مناطق. كذلك يطلق بعض الناس "أفغانستان" على هذه المنطقة حتى حدود قندهار، وبعضهم يطلقونها على المنطقة التي هي حتى حدود بيشاور، وبعضهم حتى إلى حدود نهر السند. فلذلك أرى أن "طور سينين" قد تكون إشارةً إلى عدة من البراري الشهيرة باسم سيناء في هذه المنطقة، ولكن الجبل الذي كلّم الله عليه موسى عليه السلام جبل معين، ونحن نشير هنا إلى الطور (أي الجبلِ) الموجود في تلك السينين.

لقد سبق أن ذكرتُ أن قوله تعالى ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ إشارةٌ إلى هجرة آدم وهجرة نوح، حيث بيَّن الله تعالى أن أعداءهما فرحوا بهجرتهما فرحة زائفة فظنوا أنهم قد انتصروا عليهما، ومع ذلك كتب الله لهما النجاح وأخزى أعداءهما؛ والآن يظن أهل مكة -لجهلهم الشديد- أنهم سينتصرون على محمد بطرده من بينهم كما ظنّ أعداء الأنبياء السابقين، ولكن الله تعالى سيخيّب ظن أهل مكة كما خيَّب ظنّ الأولين، وسيبدّل فرحتهم الباطلة ذلاً وخزيًا في نهاية المطاف. وتبيانًا لهذا الموضوع قد ضرب الله الآن مثالاً آخر في قوله ﴿طُورِ سِينِينَ﴾ مشيرًا إلى هجرة موسى عليه السلام.

ويتضح من القرآن أن حادث "الطور" وقع بعد هجرة موسى عليه السلام من مصر، لقد قال الله تعالى في بداية القرآن عند ذكر بني إسرائيل ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ

اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾(البقرة:٥١-٥٢). فيتضح من هذه الآيات أن هجرة موسى عليه السلام سبقت حادث الطور، حيث خرج مع بني إسرائيل من مصر أولاً، ثم أخذه الله إلى الطور حيث أنزل عليه وحيه الذي تضمن للأمة اليهودية عشرة وصايا هي لُبُّ التوراة. ويتضح من التوراة أيضا أن حادث الطور وقع بعد هجرة موسى عليه السلام من مصر، حيث ذكرت التوراةُ -في سِفْر الخروج- هجرةَ موسى أولاً، ثم وصول بني إسرائيل إلى برية سيناء، ثم حادث الطور أخيرًا، وهذا الترتيب التوراتي يكشف أن الهجرة سبقت حادث الطور. فهجرة موسى عليه السلام مذكورة في سِفر الخروج إصحاح ١٤، ووصوله إلى برية سيناء مذكور في سِفر الخروج إصحاح ١٦، وحادث الطور مذكور في سِفر الخروج إصحاح ١٩.

وقد جاءت خلاصة الإصحاح الرابع عشر لسفر الخروج في التوراة القديمة كالآتي: في بيان أن الله تعالى يهدي بني إسرائيل إلى سبيلهم، فيتبعهم فرعون، فيخاف بنو إسرائيل فيُطَمْئِنُهم موسى، فيُعلّم اللهُ موسى، وعمود الغيوم يكون على ظهر الجنود، ويمر بنو إسرائيل من بحر القلزم ويغرق أهل مصر فيه. وهذه حادثة الهجرة.

أما الإصحاح ١٦ من الخروج فملخصه كالآتي: في بيان أن بني إسرائيل يصِلون إلى برية سين، فيصيبهم القلق لقلة الطعام، فيعِدهم الله بإنزال الخبزَ من السماء، فيبعث لهم المنّ والسلوى طيورًا من السماء، فيؤمر الجميع بجمع المنّ لأنهم لن يجدوه يوم السبت، وكانوا يحفظون مِلْءَ الغُمرِ♦مِن المَنِّ لتراه الأجيال القادمة.

أما الإصحاح ١٩ من الخروج فملخصه كالآتي: في بيان أن بني إسرائيل يصِلون برية سيناء، فتنزل لهم رسالةُ الله على الجبل بواسطة موسى، فيجيبون عليها، فيستعدّون لليوم الثالث، وممنوع عليهم لمس الجبل، ويظهر الربّ يهوه على الجبل ظهورا مُخيفا.

باختصار، إن التوراة والقرآن متفقتان على أن الهجرة سبقت حادث الطور.

♦ الغُمرُ إناءٌ أو مكيال، ورد في لسان العرب: الغمر: القدح الصغير. (المترجم)

فبعد ذِكر مثال آدم ونوح ضرب الله في قوله ﴿طُورِ سِينِينَ﴾ المثال الثالث مثالَ موسى، حيث أخبر أنه اضُطرّ للهجرة نتيجة اضطهاد الأعداء وخرج بقومه من مصر، فظن أعداؤه أنهم قد تخلصوا من فتنته، ولكن الله تعالى جعل هجرته سببًا لهلاك أعدائه ولغلبة بني إسرائيل، إذ لو بقي هؤلاء في مصر لظلوا محكومين و لم ينجوا من ظلم فرعون وفظائعه. ولكن بعد حادث ﴿طُورِ سِينِينَ﴾ أغدق الله عليهم بركات كثيرة، فلم يتحرروا من عبودية فرعون للأبد فحسب، بل وعدهم الله بالمُلك ووضع الأساس له، فاستمر مُلكهم ألف سنة بكل عظمة وشوكة.

وهناك أمر جدير بالذكر هنا، ألا وهو أن الله تعالى يبين هنا للكفار أن مكائدهم لن تضرّ محمدا شيئا، فأحداثُ (التين والزيتون وطور سينين) أمامهم، حيث خدع الشيطان آدم فستر التينُ عورتَه، ثم لما جاء الطوفان في زمن نوح نال البشارة من خلال غصن الزيتون، وحين هرب موسى عليه السلام من مصر وجد الملاذ في طور سينين. وحيث إن هذه الآيات تركز على موضوع غلبة الأنبياء ورقيهم فلم تتطرق إلى اضطهاد العدو لهم، وإلا فالواقع أن قوله تعالى ﴿وَالتِّينِ﴾ يشير إلى خداع الشيطان لآدم عليه السلام ونجاح آدم بالتين، وقوله تعالى ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ يشير إلى تضييق قوم نوح عليه السلام الخناق عليه وهلاكهم بالطوفان وتلقّي نوح البشارة بنجاته ونجاحه من خلال غصن الزيتون، وقوله تعالى ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ يشير إلى هروب موسى عليه السلام من مصر وتلقّيه البشارة بالنجاح عند طور سينين، وقوله تعالى ﴿وَهذَا البَلَدِ الأَمِينِ﴾ إشارةٌ إلى هجرة محمد ﷺ من مكة ثم عودته إليها منتصرا. فحيث إن موضوع الاضطهاد والهجرة وغيرهما متضمَّن في هذا الحديث، فاكتفى الله بالإشارة إليها فقط مركِّزًا على ذكر غلبة هؤلاء الأنبياء ونجاحهم، كيلا يفرح العدو بنجاحه المؤقت ظنًا منه أنه قد هزم أنبياء الله تعالى.

خلاصة القول إن الله تعالى قد بيّن في قوله ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ أنه عند هجرة موسى من مصر غرق فرعون في قاع البحر، بينما تجلَّينا على موسى على جبل الطور.. فكأن أحدهما سقط إلى الحضيض، والآخر صعد إلى القمة. فكلاهما رأى التجلّي الإلهي: أحدُهما في قاع البحر وثانيهما على قمة طور سيناء. وهذا ما

سيُفعل بكم يا أهل مكة. لقد هرب موسى من مصر في الظاهر بسبب ظلم فرعون وقومه، فأُخرجوا من ديارهم ومساكنهم وعقاراتهم، ولكن الله تعالى تجلى لموسى على طور سينين ووعدهم بالغلبة والانتصار. واعلموا، يا أهل مكة، أنه يُجَهِّز لمحمد رسول الله أيضًا طور سينين –وهو المدينة التي أُعطيَها النبيُّ ﷺ– فيمكن أن تدركوا ما هو مصيركم وما هو مقدر لكم. يمكنكم أن تُخرجوا محمدا من بينكم، ولكنكم سترون بعد ذلك أني سأغرقكم كما أغرقتُ فرعون، وأرفع محمدًا إلى طور سيناء كما رفعت موسى من قبل، تأكيدًا على أن الفطرة الإنسانية طاهرة وسترون أن الناس سيستجيبون الآن أيضًا لفطرتهم النقية شاهدين على صدق قولنا ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ كما شهدوا عليه في زمن موسى.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾.. أي نقدّم هذا البلد الأمين شهادةً.

والأمين بمعنى الآمِن أو المأمون (الصحاح للجوهري)، وكلا المعنيين ينطبق على مكة في رأيي.

يتضح من هذه الآية أن الحديث هنا ليس عن حالة مكة التي كانت عليها وقت نزول هذه السورة، إذ قد أشار الله تعالى إلى حالتها تلك في موضع آخر بقوله ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهذا الْبَلَدِ﴾، أي أنت تُعتبر حلالاً في هذا البلد، فما من أذًى إلا وتتعرض له، وما من ظلم إلا ويصبّ عليك، وما من سهم إلا ويُصوَّب إليك، ومع ذلك يظن أهلها أنهم يحسنون صنعًا. فكيف يمكن أن يسمى ﴿البلد الأمين﴾ ذلك البلد الذي يصبح فيه إنسان مسالم محبّ للأمن مثل محمد عرضةً للظلم؟ الواقع أن مكة صارت البلد الأمين بعد فتحها حين نال المسلمون الغلبة على الكافرين ورُفعت المظالم. أما قبل الفتح فمتى كان هذا البلد أمينًا؟ كلا، لم يكن فيه أمن ديني وروحاني أو مادي. ففيما يتعلق بالأمن الديني والروحاني كانت مكة بلدًا يتم فيه السطو على إيمان الناس، فكانوا يُرغَمون على عبادة الأصنام بدلاً من عبادة الله الأحد، ويُكرَهون على تقديم القرابين لِلاّت حينًا، ولِلعُزَّى حينًا، ولِهُبل حينًا، ولِمَناة حينًا آخر. كانت عبادة الأصنام منتشرة في مكة بحيث وضعوا في بيت الله الذي بُني لعبادة الرب الأحد ٣٦٠ صنمًا بحسب عدد أيام السنة، ففي كل يوم من

أيام السنة كانوا يُحنُون رؤوسهم أمام أحد من هذه الأصنام. أما الأمن المادي فكان أهل مكة يصبّون أبشع الظلم على قوم محبين للعدل، ناصحين لخلق الله، داعين إلى السلام وإلى أداء حقوق العباد وحقوق الله بكل أمانة. هل في هذه الأهداف ما يمكن أن يثير غضب أهل مكة فيُخرجوا كل سهم من جعبتهم ويوجهوه إلى صدور المسلمين؟ ولكن هذا ما حدث فعلاً؛ فتعرّضَ المسلمون لأشد أنواع التعذيب من ضرب وقتل وهتك عرض لفترة طويلة، وليس هذا فحسب، بل قد صُبّ الظلم المتواصل على سيدهم الذي كانوا يتفاخرون بالإذعان له ويفدونه بكل غال ورخيص بمجرد إشارته. ثم هو ذلك الشخص الذي كان الكافرون أفتوْا بكونه صادقا أمينًا، مما يعني أن الكافر وعابد الأصنام والكذّاب والغشّاش والظالم والغاصب كان يتمتع بالأمن في مكة، وإذا كان أحد لا يتمتع فيها بالأمن فهو ذلك الشخص الذي اشتهر بين أهلها بالصدوق الأمين (البخاري: التفسير، سورة الشعراء). إذن، لم تكن مكة عندها بلدًا أمينًا لا روحانيا ولا ماديا. فثبت أن قوله تعالى ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ لا يشير إلى حالة مكة عند نزول هذه السورة بل يشير إلى ما ستكون عليه بعد هجرة النبي ﷺ. فالحق أنّ حادث ﴿التِّينِ﴾ كان بعد الهجرة حين انتصر آدم عليه السلام على الشيطان، وحادث ﴿الزيتونِ﴾ أيضا كان بعد الهجرة حين نجا نوح عليه السلام من الطوفان، وحادث ﴿طُورِ سِينِينَ﴾ أيضا كان بعد الهجرة حين تلقى موسى عليه السلام بشارة الترقيات القادمة، وحادث ﴿البلدِ الأمينِ﴾ أيضا وقع بعد الهجرة، وقد أنبأ الله تعالى عنه في أوائل الفترة المكية حيث بيّن أنه رغم أن المسلمين هدف للفظائع اليوم، ولكن سيأتي يوم تصبح مكة فيه بلدًا أمينًا للعالم، وتنتهي سلسلة المظالم هذه وينعم محمد (ﷺ) وأصحابه بالأمن والسلام. وكأن الله تعالى يعلن هنا أن الهجرة ستكون سبب ازدهار الإسلام والمسلمين بدل أن تضرّهم. ستظنون، أيها الكافرون، أنكم قد قضيتم على الإسلام بهجرة محمد (ﷺ) منها، لكن الله تعالى سيأتي به إليها منتصرًا، فيكسر كل صنم من أصنام مكة، قاضيًا على الشرك ومدوّيًا اسم الله الأحد في شوارعها وأزقّتها، وهكذا سيرسي فيها الأمن الروحاني، كما لن تقدروا عندها على أن تنظروا إلى محمد (ﷺ)

وأصحابه بسوء، أو تظلموا الفقراء، وهكذا يرسي فيها الأمن المادي، ويجعلها البلدَ الأمين.

ولو كان الأمين بمعنى المأمون فستعني الآية أن مكة التي لم تزل محفوظة منذ القدم، سوف تُفتَح قسرًا في يوم من الأيام، وذلك كما قال رسول الله ﷺ في حديثه " إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي وَلا لأَحَدٍ بَعْدِي، وَإِنَّمَا حَلَّتْ لِي سَاعَةً" (البخاري، كتاب البيوع).

إن من الأمور الطبيعية أن يغض الإنسان الطرف عن الأمر العارض الذي يقع بعد فترة طويلة؛ فمثلاً إذا أصيبَ بالحمى يومًا مَن يتمتع بصحة جيدة منذ عشر أو خمس عشرة سنة فلن نقول إنه رجل مريض، ذلك أنه مرض مرضًا عابرًا بعد فترة طويلة من الصحة، كذلك فقد يكون قول الله تعالى ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ إشارةً إلى أن مكة ستتعرض حتمًا لهجوم يُحِلُّ حرمتَها حيث يفتحها محمد ﷺ قسرًا، ولكن هذا لا يعني أن مكة لم تعُد البلدَ الأمين، كلا، بل لقد جعلها الله بلدًا آمنًا، وأرسى حرمتها بأمره، أما دخول محمد ﷺ فيها قسرًا فأمرٌ عابر، وقد سُمح له بذلك تحقيقًا لبعض أنباء الله فقط. لقد كانت بلدًا أمينا، وهي كذلك الآن وستظل كذلك، ولن يقدر أحد على هتك حرمتها، ولذلك نجد النبي ﷺ قد أعلن عن حرمتها بعد فتحها.

إذن، فلا شك أن مكة كانت بلدًا آمنًا من قبل، وظلت بلدًا آمنًا فيما بعد، ولكن لما كان من المقدر أن تُفتح قسرًا على يد محمد ﷺ بإذن الله تعالى لبعض الوقت، فالحق أنها ما كانت لتُسمَّى البلد الأمين حقًا وبشكل كامل إلا بعد الفتح لا قبله. وبالفعل لما فتحها النبي ﷺ بجنوده أرسى حرمتها الأبدية.

فالحق أن هذه الأمور الثلاثة تتعلق بفتح مكة؛ فالأمن الروحاني والديني لم يتيسر لها إلا بعد فتحها بعد أن قُضي على الشرك فيها، وأما الأمن المادي فلم يتيسر لها أيضًا إلا بعد فتحها حين توقف اضطهاد الكافرين للمسلمين، وأما كونها مأمونةً بشكل كامل فلم يكن إلا بعد فتحها أيضًا. فثبت أنها لم تكن البلدَ الأمين بصورة كاملة ومن أي ناحية قبل أن فتحها النبي ﷺ.

فالله تعالى يقول هنا للكافرين نعرض أمامكم هذه الأحداث الأربعة. لقد وقعت ثلاثة منها، وأما الرابع فلم يقع بعد. وما دامت الأحداث الثلاثة قد وقعت فيمكن أن تدركوا أن رابعها أيضًا واقع حتمًا. فهذا البلد الذي هو بمثابة النار لمحمد ولأصحابه اليوم، سيصبح البلد الأمين بعد هجرته، وهكذا يقدِّم شهادة رابعة للعالم على صدق قول الله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

التقويم: التعديل (الأقرب).

فأحسنُ تقويم يعني: جعلُ الشيء في أفضل صورة بريئًا من كل نقص وعيب. وقوله تعالى ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ حالٌ للإنسان، والمراد أننا خلقنا الإنسان حال كونه في أحسن تقويم.. أي خلقناه بحيث ليس له مثيل في صفة التعديل والإصلاح.

وهنا واجه المفسرون مشكلة وقالوا إن التعديل والتقويم من صفات الله تعالى، فكيف يكون الإنسان مقوِّمًا ومعدِّلا؟ فأجاب البعض أن المراد من التقويم هنا القوامة، ومفهوم الآية أن الله قد خلق الإنسان بأحسنِ قُوًى وكفاءاتٍ. وقال الآخرون: هناك حذْف مُضاف، والتقدير: في أحسنِ قوام التقويم.. أي أن الله تعالى قد جعل الإنسان أفضل مخلوق وجعله أكثر قوامًا من المخلوقات الأخرى. ونظرًا لهذا المعنى سيعني قوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أن الله تعالى قد جعل الإنسان أفضل نموذج لصفته الخالق.

وقال البعض إن ﴿فِي﴾ زائدة هنا، وأن ﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ حالٌ لله تعالى، أي أن الله تعالى قد خلق الإنسان بأحسن تقويمه.. أي أن صفة الله التعديل قد تجلّت في خلق الإنسان أكملَ تَجَلٍّ. (روح المعاني)

وهذا هو نفس المعنى المذكور من قبل تقريبًا بأن الله قد خلق الإنسان بقوى معتدلة جدا، مع معنى إضافي بأن الإنسان أفضل من باقي المخلوقات. فما دام الله

تعالى قد خلق الإنسان في أحسن تقويم، وما دامت صفة التقويم الإلهي قد تجلّت عند خلق الإنسان بصورة كاملة، فلا بد أن يكون الإنسان أفضل المخلوقات. وهي قضية ما زالت مثار جدل عند الصوفية، حيث قالوا: هل الإنسان أفضل أم الملائكة؟ وقد أجاب البعض أن الملائكة أفضل لأنها لا ترتكب أي سيئة، بينما قال آخرون إن الإنسان كجماعة أفضلُ من الملائكة، لأن الله تعالى قد خلقه بقدرات وكفاءات لو أحسنَ استعمالها سبَق الملائكةَ. وأما أنا فأرى أن قوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ يؤكد أن الإنسان أفضل من الملائكة. ذلك أننا لو فسّرنا هذه الآية بأنّ صفة التقويم الإلهية قد تجلَّت في الإنسان بأروع صورة، فهذا يعني أن الله قد خلق الإنسان أفضل من المخلوقات الأخرى. أما لو فسرناها بالمفهوم الآخر، أي أن الله تعالى خلق الإنسان بأفضل قوى وباعتدال يبلغ حد الكمال، فأيضا ثبت أن الإنسان أفضل من الملائكة، لأن الإنسان هو المخلوق الذي يوجد فيه الاعتدال إلى حد الكمال، والذي قد أُرسلَ إلى الدنيا مزوَّدًا بأفضل القوى.

على أية حال، إن هذه الآية تدل على أن الله تعالى قد خلق الإنسان -جنسًا لا فردًا- أفضلَ من جميع المخلوقات بما فيها الملائكة، لِما زوّده به من قوى وقدرات.

ولو فكّرنا في هذا الموضوع عقلاً لتوصلنا إلى النتيجة نفسها؛ أعني أن الملائكة ليست أفضل من الإنسان؛ ذلك أن الخير والطاعة في الملائكة جبرية، ومثالها كمثال الجبال التي خلقها الله شامخةً بقدرته. لا شك أنها مرتفعة، ولكن ليس لها في ذلك ميزة ذاتية؛ فلا يمكن لجبال الهملايا مثلاً أن تفتخر بعلوها، ذلك أن علوها جبرية؛ إنها عالية لأن الله تعالى خلقها كذلك. أما الإنسان إذا قوى جسمه بالرياضة وكثرة التمرين فلا بد أن يُعتبر هذا ميزة له. فحيث إن الإنسان مزوَّد بقوة الخير وقوة الشر، ومخيَّرٌ في أن يختار أي الطريقين- أعني أن يحظى برضا الله باتّباع الخير أو يُسخِط ربه بارتكاب المعصية- لذا فإن الذي يعمل الصالحات -وإن كان مؤمنًا عاديًا في الظاهر- أفضلُ من الملائكة العادية، لأن ميزة الملائكة ليست ذاتية، بل الله تعالى قد خلقهم هكذا.

وهنا ينشأ سؤال آخر وهو: هل الفرد الكامل من الناس أفضلُ من الفرد الكامل من الملائكة أم لا؟

والجواب على هذا السؤال يوجد في هذه الآية، فما دام الله قد خلق الإنسان في أحسن تقويم وزوَّده بكفاءاتٍ أفضلَ من الملائكة فلا بد أن يكون الفرد الكامل من الناس أفضلَ من الفرد الكامل من الملائكة. وبالفعل فإن الرسول ﷺ ليس أفضل البشر فحسب، بل هو أفضل من الملائكة أيضا. لا شك أن المَلَك أفضلُ من المؤمن العادي الذي يقع في الذنوب، لأنه وإن كان فُضِّل على المَلَك بما زُوِّدَ به من قوى وكفاءات إلا أنه تخلّفَ عن المَلَك لعدمِ تحلِّيه بالقوى الكامنة فيه، أما الإنسان الذي يتحلى بالقوى التي زوِّد بها على أحسن وجه فلا يمكن إنكار فضله على الملائكة بحال، لأن القوى الإضافية التي زوِّد بها مقابل الملائكة قد تجلّتْ منه عمليًا. وعليه فإن الرسول ﷺ وغيره من الأنبياء أفضل من الفرد الكامل من الملائكة يقينًا، وإنْ كان طائفة من المسلمين يقول بعكس ذلك.

وعندي أنّ قوله تعالى ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ينطبق على الإنسان كما هو بدون أن نعتبر ﴿فِي﴾ زائدة هنا، حيث يمكن نسبةُ ﴿أحسن تقويم﴾ للإنسان أيضًا. لقد وقع المفسرون في شبهة لأنهم فكّروا أن الله هو المعدِّل، فلا يمكن أن يُسمَّى الإنسان معدِّلا. وهذا التفكير ليس سليما، لأننا نرى أن الإنسان قد وُصف في القرآن الكريم بالرؤوف والرحيم والرزّاق والخالق والبصير والسميع، وكلها صفات إلهية في الأصل، فإذا جاز وصف الإنسان بكل هذه الصفات فلماذا لا يمكن وصفه بأحسن تقويم؟ بيد أن الإنسان لا ينال نصيبًا من هذه الصفات إلا بقدر ما هو مقدَّر له، ولا يصحّ القول أبدا إنه يمكن أن يتصف بهذه الصفات بحيث يصبح ندًّا لله تعالى؛ ذلك أن كل شيء يعمل بحسب طاقاته، وليست المقارنة هنا بين الله والإنسان، بل بين مخلوق وآخر، حيث بيَّن الله تعالى أن الإنسان هو الوحيد من بين جميع المخلوقات الذي يمكن أن يقدِّم نموذجًا لأحسن تقويم. فرغم أن الملائكة من خلق الله تعالى، إلا أنها لا تستطيع أن تباري الإنسان في هذه الصفة. والحال نفسه بالنسبة للمخلوقات الأخرى مقابل الإنسان. فمثلا إن المهمة التي عُهدت للنبي ﷺ

لا يمكن لجبريل أن يقوم بها، والمهامّ التي أُنيطتْ بالأنبياء الآخرين لا تقدر الملائكة على إنجازها، ومن أجل ذلك بعث الله موسى وعيسى وداود وسليمان وإبراهيم ورسولنا الكريم لإصلاح العالم، ولم يبعث الملائكة لهذه المهمة. وليس ذلك إلا لأن الله تعالى قد أودع الإنسانَ صفة أحسن تقويم ولم يودعها الملائكةَ؛ بمعنى أن مهمة التربية والتعليم والإصلاح التي يمكن أن يضطلع بها الإنسان لا يقدر عليها الملائكة ولا غيرها من المخلوقات. وهذا دليل على أن الإنسان -كجنسٍ- أفضلُ من جميع مخلوقات الله تعالى، وأن الفرد الكامل من الناس أفضلُ من الفرد الكامل من الملائكة.

باختصار، إن من معاني هذه الآية أننا خلقنا الإنسان بحيث إنه يقوم بأحسن تقويم، أي أنه يقوم بتعليم وتربية بني جنسه وغيره من المخلوقات بأفضل شكل ويخلق الأشياء ويقدّرها ويصوّرها بأروع شكل. بتعبير آخر لقد جعل الله الإنسان معلِّمًا رائعًا ومربِّيًا رائعًا وخالقًا رائعًا وصانعا رائعا في المجالين الروحاني والمادي، وكل ذلك دليل على فضله الكبير على المخلوقات الأخرى. وهذا المفهوم لا يستلزم أيَّ شِركٍ مطلقا، فما دام الجميع يعترف بأن الإنسان بصير وسميع ورؤوف ورحيم، فلا مانع من أن يتصف بصفة أحسن تقويم أيضا. وهذا ما بينه الله في هذه الآية، حيث أخبر أننا قد أودعْنا الإنسانَ صفة أحسن تقويم أيضا وجعلناه خالقًا في المجالين المادي والروحاني، فإنه يُخرِج بتربيته أناسًا كاملين، كما يأتي بروائع الصنائع؛ والأدوار الأربعة المذكورة هنا تؤكد ذلك. فإذا أجلتم النظر في هذه الأدوار لاعترفتم أن الله تعالى قد زوّد الإنسان بقوة التربية والتعليم والتعديل بشكل خارق. لقد جاء آدم فقام بعملية الإصلاح التي استمرت مئات السنين. ثم جاء نوح فأنشأ جماعة من كبار الصلحاء الأطهار، وهكذا ترك في الدنيا آثار إصلاحه التي لن تنمحي أبدا. ثم جاء موسى فقام بتعديل القوى الإنسانية وأقام جماعةً من الصلحاء العظام الذين أظهروا جلال الله وجماله في العالم. والآن قد جاء محمد رسول الله الذي ستنكشف على يده هذه الصفة الإنسانية حتمًا، فتدرك الدنيا أننا قد خلقنا الإنسان مزوَّدًا بصفة أحسن تقويم. لقد كان آدم ونوح وموسى ومحمد كلهم دليلاً

على أحسن تقويم، وسوف ترون الآن كيف يكشف الإنسان ما فيه من أفضل القوى وأروعها نتيجةَ تعليم محمد ﷺ وتربيته.

هذه الأدوار الأربعة المذكورة آنفًا إنما هي أربعة أدوار لتكميل الإنسانية في الواقع. لقد كان آدم عليه السلام مؤسس مرحلة المَدنية، وكان نوح عليه السلام مؤسس مرحلة الشريعة، وكان موسى عليه السلام مؤسس مرحلة تفصيل الشريعة، وأما محمد ﷺ فكان مؤسس مرحلة التكميل. لقد قام آدم بتشكيل الإنسانية، وقام نوح بتأسيس الشريعة، وقام موسى بتفصيل الشريعة، وبُعث محمد ﷺ فقام بتكميل الإنسانية والمدنية والشريعة وتفصيل الشريعة، وكأنه ﷺ بلغ بالمراحل الثلاث التي ظلت ناقصة إلى حد الكمال. لقد أزال من مرحلة المَدَنيّة ما كان بها مِن نقائص فقدَّم للعالم مَدَنيّة كاملة خالية من العيوب، وقد طهّر الشريعة من كل عيب وقدّم شريعة كاملة خالية من النقائص، وطهّر مرحلة تفصيل الشريعة من كل نقص، وقدّم أمام العالم مجموعة من القوانين الكاملة المترهة عن أي عيب، وتسدّ كل حاجة، وليس فيها ما يُعَدُّ زائدًا لا حاجة إليه، فكمّل الشريعةَ عمقًا وسعةً. لا شك أن نوحًا عليه السلام عرض على العالم أول شريعة كانت تتصف بالعمق ولكن تفتقر إلى السعة حيث احتوت على بعض القضايا العامة البسيطة. أما الشريعة التي قدّمها موسى عليه السلام فكانت تتسم بالسعة ولكنها لم تتناول كل القضايا بعمق. أما محمد رسول الله ﷺ فأكملَ الشريعة عمقًا وسعةً، فليس هناك عمق أخلاقي إلا وألقى كتابه الضوء عليه، وليس هناك سعة أخلاقية إلا وتناولها كتابه. لم يذكر موسى عليه السلام كثيرا من دقائق الشريعة، ولم يذكر نوح عليه السلام كثيرا من تفاصيل الشريعة، وأما آدم فلم يذكر كثيرا من أمور المدَنية، فجاء محمد رسول الله ﷺ وسدّ كل هذه الثغرات وأكمل الشريعة. وهكذا ثبت صدق قول الله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.. أي لقد خلقنا الإنسان بأعلى درجة من التقويم، وأن كل مرحلة من هذه المراحل الأربع كانت تكميلا للإنسانية، فلم يزل هذا البناء يرتفع ويرتفع حتى اكتمل.

التفسير: لقد قلت من قبل إن قوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ يمكن تفسيره بعدة معانٍ، منها أننا جعلنا الإنسان أفضل مخلوق، ومنها أننا خلقناه مزوَّدًا بأفضل القوى والكفاءات، ومنها أننا جعلناه صانعا ماهرا وزوّدناه بصفة التقويم، فهو قادر على أن يقوم بأروع خلق في المجالين الروحاني والمادي.

وهذه الدعوى التي قدَّمها الإسلام أمام الدنيا توجد حولها ستة اختلافات كبيرة بين مختلف الأديان، وأحد هذه الاختلافات هي العقيدة التي قدّمها الإسلام، والخمسة الأخرى هي العقائد التي تقدّمها بقية الأديان، ونورد فيما يلي هذه العقائد بشيء من التفصيل.

العقيدة الأولى هي أن الإنسان قد خُلِقَ بنزعة نحو الشرّ، غير أنه يمكن أن ينصلح بالإصلاح؛ فكأنهم يقولون إن الإنسان مائل بفطرته إلى السيئات، وأنه جُبل على هذا النقص منذ أول يوم وإنْ كان قد مُنحَ القدرة على إصلاحه أيضا. وبتعبير آخر أن للإنسان طبعًا مَرِنًا غير أن أساسه على السوء، مثل الشجرة التي تنبت في مكان وسخ نجس. لا شك أننا نستطيع أن ننقلها إلى الأرض الجيدة، غير أنه لا يمكن إنكار أن منبتها أرض نجسة.

والعقيدة الثانية تقول إن الإنسان مفطور على الخير، إلا أن الإنسان الأول "آدم وحواء" ارتكبا السيئة، وحيث إن المرء يتأثر بوالديه بالوراثة حتمًا، فأولادهما مُكرَهون على ارتكاب السيئات رغم فطرتهم الصالحة. ويقول أصحاب هذه النظرية إن قوى الإنسان نوعان: ذاتية ومكتسبة، والقوة الذاتية في الإنسان هي قوة الخير، ولكنه قد ورث الخطيئة من أبويه، فصارت فطرته الصالحة ملوثةً بالخطيئة الموروثة، فلا يمكن أن يتحرر منها إلا بمساعدة مساعد. ثم يقول هؤلاء إن الله تعالى لما وجد أن من المحال أن ينجو الإنسان من الإثم الموروث قال لابنه: يمكن أن ينال الناس النجاة لو ضحَّيت بنفسك فداءً لآثامهم رغم كونك غيرَ آثم، فرضي الابن، فقال الله له: اذهبْ الآن إلى الدنيا في صورة إنسان، وسوف يضربونك ويؤذونك

وفي الأخير يصلبونك. ستتحمل كل هذا العذاب بأيديهم، ولكنك ستتحمله غيرَ آثم، ولذلك سيغفر الله تعالى للعالم كل ذنوبه نظير تضحيتك.

باختصار، إنهم يقولون إن فطرة الإنسان نقية، ولكن الإنسان الأول وقع في السيئة، فانتقل هذا الإثم في البشر بالوراثة رغم فطرتهم النقية، ولا يمكن أن ينجوا منه إلا إذا آمنوا بفداء المسيح وكفارته.

والعقيدة الثالثة تقول إن الإنسان لم يُخلَق بقوّة معيّنة، ومن الخطأ القول أنه مفطور على الخير أو الشر، إنما الواقع أنه قد خُلق ببعض القوى والقدرات التي ليست بخير ولا بشرٍّ، كالشجاعة والتهور والمحبة والسخاء والرفق والغضب وما إلى ذلك، ثم إنه يتأثر بالتعليم والتربية ويصبح ما يصبح. بتعبير آخر إن الإنسان مجبر بظروفه، أي أنه حرٌّ بفطرته، ولكن بيئته لا تتركه حرًّا، فتصوغه كيفما تشاء، فإذا كان أبواه هندوسيَّيْن أصبح هندوسيا، أو إذا لعب مع أولاد الحارة تخلّقَ بأخلاقهم. إن الظروف هي التي تدفعه إلى الخير أو الشر، فإذا كانت ظروفه حسنة أصبح حسنًا، وإذا كانت سيئة أصبح سيئا. فحياته مصاغة بحكم المحيط، فيصبح صالحا أو طالحا بحكم الظروف، وليس صحيحًا أنه مزود بقوة الخير أو الشر.

والعقيدة الرابعة تقول إن الإنسان خُلِقَ مجبورا، فهو مجبر بحسب القانون الإلهي. وهذا رأي بعض المتصوفين الفاسدين في هذا العصر، فإنهم يظنون أن الإنسان لا يفعل إلا ما هو مكتوب في قدره، فلو نبّههم أحد إلى إصلاح أنفسهم قالوا: هذا الإثم مكتوب في قدرنا، فلا نستطيع أن نفعل خلافه.

والعقيدة الخامسة تقول: إن الإنسان قد جاء إلى هذه الدنيا ليتحمل نتائج خلقه السابق، وأن حياته نتيجة لأعماله السابقة.

والعقيدة السادسة التي يؤيدها الإسلام تقول إن الإنسان خُلِقَ بفطرة مائلة إلى الخير، غير أنه يفسُد إذا أُفسِدَ.

والنظرية الأولى القائلة أن الإنسان مفطور على الشر غير أنه ينصلح بالإصلاح هي عقيدة البوذيين وبعض من أهل الصين والدامّارغيين وغيرهم.

والعقيدة الثانية القائلة أن الإنسان مفطور على الخير، ولكن آدم أخطأ فانتقلت خطيئته إلى ذريته بالوراثة، ولا يمكن التخلص منها بلا مساعَدة مساعِد، فهي العقيدة المسيحية.

أما العقيدة الثالثة القائلة أن الإنسان لم يُخلَق بقوة معينة، وإنما يتأثر بالتعليم والتربية فيصاغ بحسبها وهو مجبر بظروفه، فهي نظرية الفيلسوف المعاصر فرويد، ويقدمها فلاسفة هذا العصر.

والعقيدة الرابعة القائلة أن الإنسان خُلِقَ مجبرًا وأنه مجبر بسبب القانون الإلهي، فهي نظرية بعض المتصوفين الفاسدين في هذا العصر وبعض النصارى.

أما العقيدة الخامسة القائلة أن الإنسان يأتي إلى الدنيا ليتحمل عواقب خلقه وأن حياته نتيجة لأعماله السابقة فهي عقيدة هندوسية. (موسوعة الأديان المجلد ١ ص ٨٦-٨٧ تحت كلمة: Adam والمجلد ١١ ص ٥٣٣-٥٣٥ تحت كلمة: Buddist and Chinese، وص ٥٦١ تحت كلمة: Hindu)

والعقيدة السادسة القائلة أن الإنسان قد خُلق بفطرة مائلة نحو الخير وأن أبواب الرقي غير المتناهي مفتوحة أمامه على مصارعها، غير أنه يمكن أن يفسد إذا أفسده أحد، فهي نظرية الإسلام.

هذه هي النظريات الستّ، وأربع منها تسمى نظريات فلسفية وتؤيد الجبر. وأُولى هذه النظريات الجبرية هي عقيدة الفداء المسيحية التي يبرر أصحابها الجبر بقولهم إن أبانا آدم ارتكب الإثم، فصارت فطرتنا جميعا آثمة سيئة.

والثانية هي عقيدة التناسخ الهندوسية حيث يعتبرون أعمالهم السيئة في ولادتهم السابقة سببًا لهذا الجبر، وبحسب هذه العقيدة يُعتبر بعض الناس خيرا وبعضهم شرا، غير أن الذي هو صالح ليس صالحا تماما ولذلك يُلقى حتى الآن في دورة الولادات المختلفة . وكأنهم يقولون إن الشر في كل إنسان، غير أن بعض الناس أقلُّ شرًّا من غيره، والذي يبدو صالحا هو أيضا سيئ في الواقع، ولذلك يُلقى في دورة الولادات المختلفة.

والنظرية الجبرية الثالثة هي لبعض المسلمين المبتدعين حيث يعتبرون الله تعالى علة الجبر، بمعنى أنه تعالى قد خلق بعض الناس صالحين وبعضهم سيئين، فمن خُلق صالحًا أُعطيَ فطرة حسنة، ومن خُلق سيئًا أُعطي فطرة سيئة.

والنظرية الجبرية الرابعة هي عقيدة الفلاسفة المعاصرين الذين يقولون أن الإنسان ليس بِحُرٍّ، وإنْ كانوا يقولون إنه ليس مجبرًا نتيجة فعلٍ من الله ولا فعله هو ولا فعل آبائه، بل هو مجبر بسبب طبعه أو بيئته، فالذين يتمتعون بقدرات جيدة بطبعهم أو يعيشون في محيط صالح فإنهم يعملون أعمالا حسنة، أما الذين خلقوا بطبائع ناقصة ضعيفة أو يعيشون في بيئة سيئة فيعملون السيئات، ولا خيار لهم في ذلك، بل إن المحيط هو الذي يؤثر فيهم ويصوغ فطرتهم.

والعقيدة القائلة بأن الإنسان جاء إلى الدنيا بفطرة سيئة فهي عقيدة كل الأديان إلا الإسلام، فكل العقائد المذكورة أعلاه تؤكد هذا الأمر تقريبا، حيث يرى أصحابها عموما أن أصلنا هو الإثم وعلينا أن نقضي عليه، حيث يرى البوذيون خاصة أن فطرة كل إنسان سيئة. أما أصحاب العقائد الأخرى فهم أيضًا يحملون أفكارًا مماثلة، لأنهم إذا كانوا يسلّمون بوجود خير في الإنسان فأيضًا بمعنى سيئ، فيقولون مثلاً إن الإنسان مجبر بظروفه ومحيطه، فإذا كانت بيئته حسنة صار حسنًا وإذا كانت سيئة صار سيئا. فلا شك أنهم يعترفون بوجود الخير في الإنسان، ولكن الجميع يدرك أن عقيدتهم هذه لا تنسب أي خير إلى الإنسان، لأنه إذا كان يعمل الحسنة جبرًا فليس في ذلك أي ميزة حقيقية، إنما الحسنة الحقيقية ما لا شائبة فيه من جبر وإكراه.

باختصار، إن جميع الأديان إلا الإسلام تقول إن الإنسان قد وُلد بفطرة سيئة. والحق أن كل هذه العقائد باطلة مرفوضة. فإن العقيدة الأولى منها.. التي تقول إن كل إنسان خُلق بفطرة سيئة.. توجد في عامة الناس حيث يقولون إن الإنسان بَشَرٌ وهو مجبر على ارتكاب الخطأ والإثم. ولكن دراسة فطرة الطفل تؤكد بطلان هذه العقيدة. إن الفطرة السيئة تُعرَف بالأعمال السيئة، ولكنا حين ندرس أحوال الأطفال نجدهم لا يكذبون بأنفسهم، بل إنهم يصابون بهذا العيب بعدما يرون

الكبار يكذبون. كذلك لا يكون أي طفل بفطرته مائلا إلى السرقة والخيانة وغيرهما من المنكرات، فإن بعض ما يفعله الطفل مما يُظن أنه منكر لا يكون منكرًا في الواقع، لأن بعض الأعمال تُعتبر سيئة أو حسنة بعد العلم. فمثلا ينبغي ألا يأخذ أحد مال غيره، وهذه صفة ينبغي أن يتحلى بها كل إنسان، والذي لا يتحلى بها نعتبره سيئا، بيد أنه لا يمكن أن نغض الطرف عن أمر هام، وهو أننا لن نسمي أحدًا سيئا إلا إذا كان يدرك مفهوم المِلْكية ويعلم أن المال نوعان: مالٌ هو مِلكٌ للمرء، ومال هو مِلكٌ لغيره، ولا يحق لك أن تأخذ ما هو لغيرك. فما لم يدرك الإنسان هذا المفهوم جيدا لا يمكن أن نعتبره مجرما ونعتبر فعله سيئا. وإذا درسنا حالة الطفل من هذا المنظور تبيّن لنا أنه يأخذ أشياءَ غيرِه أحيانًا لظنّه أنها مِلْكُه، ولكننا لا نستطيع أن نعتبره سيئَ الفطرة، ولا يمكن القول إنه ليس مفطورا على الخير بحجة أنه أخذ مال غيره! ذلك أنه لا يدرك مفهوم المِلْكية، ولا يدرك ما هو مال الغير. فهذا فوق مستوى إدراكه، وما دام فوق إدراكه فلا يجوز أن يُلام على مثل هذه التصرفات.

والعقيدة الفلسفية القائلة أن الإنسان وُلد بفطرة مائلة إلى الشرّ هي عقيدة البوذيين، حيث يرون أن فطرة الإنسان سيئة، وبالتالي فكل رغبة تتولد في قلبه سيئة، فلا بد له من كبت رغباته من أجل النجاة الكاملة، وما لم نقضِ على رغباتنا، فلن تتيسر لنا النجاة الكاملة!

ولكن هذه العقيدة باطلة عقلاً، ذلك أن الرغبات ليس اسمًا إلا للأكل والشرب والزواج والاختلاط مع الآخرين وإقامة الصلات معهم وكسب الرزق والعلم والعبادة وما إلى ذلك. هذه هي الرغبات الإنسانية، ولكننا حين ندرس الديانة البوذية نجد أنها لا تنهى عن الزواج إلا الرهبانَ، مع أن هذه الديانة تريد النجاة للعالم كله. فلو كانت النجاة تعني القضاء على الرغبات فكيف ينال النجاةَ البوذيُّ الذي يريد أن يتزوج؟ إذ من المحال أن يجد الإنسان زوجةً مِن دون إرادة ورغبة منه كوجود الأنف والأذن واللسان وغيرها من الأعضاء والجوارح تلقائيًا، لا يمكن له أن يجد زوجة دون أن يعلم أن فلانة ستكون زوجته ودون أن يعلم أبواه أن فلانة

ستكون كِنَّة لهم. كلا، لا بد أن يرغب في امرأة حتى يتزوجها، وإذا رغب حُـرِمَ النجاة فورًا بحسب الديانة البوذية التي تعلِّمُ أن سبيل النجاة إنما هو القضاء على الرغبات. فلو أن البوذية نهت كل رجل وامرأة عن الزواج لكان الأمر معقولا إلى حد ما، ولكنها لا تحظر الزواج إلا على الرهبان فقط، مع أنها تريد النجاة للجميع. لو أن البوذية رأت أن النجاة محالٌ لعامة الناس لما سمحت لغير الرهبان بالدخول فيها، ولكن سماحها للجميع باعتناقها لدليل ساطع على أنها تقول بنجاة كل إنسان، ولكنها ما دامت قد سمحت للجميع بالزواج إلا الرهبان، فهذا يعني أن رغبة الإنسان بالزواج لا تحرمه من النجاة بحسب هذه الديانة. والآن علينا أن نرى -بحسب العقيدة القائلة أن الرغبة تحرم الإنسان من النجاة- هل تنهى البوذية عن الزواج؟ الجواب كلا، إذ إنها لا تحظر الزواج إلا على الرهبان. إذن، فكيف يقضي الإنسان على رغبته هذه؟ إنه يرغب في الزواج، والبوذية لا تنهاه عن ذلك، فهل نقول -في هذه الحالة- أن البوذية لا تنهاه عن مجرد الرغبة في الزواج، ولكنها تسمح له بتحقيق الرغبات الأخرى؟ ولو كان الأمر كذلك فالسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو أن الرغبة في الزواج مرتبطة برغبات أخرى، فما هو الحل الذي تقدِّمه البوذية بصددها؟ فمثلا يريد المرء أن تكون زوجته صالحة، فهل تسمح له البوذية بتحقيق هذه الرغبة؟ أتريد البوذية منه أن يقضي على هذه الرغبة وتأمره أن يتزوج بشريرة سيئة؟ ثم إن الإنسان يرغب بالزواج من امرأة جميلة، فهل تقول له البوذية أن لا يرغب في ذلك، بل يتزوج بامرأة دميمة؟ ثم يريد الإنسان أن تكون زوجته مثقفة، والبوذية تأمر بالقضاء على الرغبات، فهل تقول له البوذية أن يتزوج امرأة جاهلة؟ ثم يريد الإنسان أن تكون زوجته ولودا، فهل تقول له البوذية أن لا يتزوج امرأةً ولودًا بل عاقرا؟ ثم يريد الإنسان أن يتعلم أولاده، فهل تقول له البوذية أن الرغبة أمر سيئ فلا ترغب في تعليم أولادك، بل دعْهم يعيشون جاهلين؟ ثم يريد الإنسان أن تكون ذريته صالحة، فهل تقول له البوذية أن يطلب ذرية سيئة؟ ويريد الإنسان أن يجد عملاً جيدًا أو وظيفة جيدة أو تجارة جيدة، فماذا تقول له البوذية؟ هل تنهاه عن الرغبة في التجارة الجيدة وتأمره أن يرغب في التجارة الكاسدة؟ أو

تقول له أن لا يبحث عن الوظيفة الجيدة، بل عن وظيفة سيئة؟ ويريد المرء أن يكون محصول زرعه وفيرا، فهل تأمره البوذية أن يرغب في دمار زرعه؟ ثم إن الإنسان يريد صحة جيدة وتقول البوذية أن الرغبة أمر سيئ، فهل تقول له أن لا يرغب بالصحة الجيدة لأنه إذا رغب بها أصبح آثما، فعليه أن يرغب في المرض؟ ثم إن الإنسان يريد الصلح مع جاره والأمان في بلاده، فهل تقول له البوذية أن يبقى في حرب مع جيرانه راغبًا في الفساد في بلده؟ ويريد الإنسان أن تكون الحكومة في بلده جيدة، فهل يقال له أن يرضى بحكومة فاسدة؟ ويريد الإنسان أن يحظى برضا الله تعالى، والبوذية تقول أن الرغبة أمر سيئ، فهل يعني ذلك أن على الإنسان أن لا يريد رضا الله تعالى بل يرغب في سخطه دائما؟ ويريد البوذي أن ينتشر دينه، فبمجرد أن تتولد هذه الرغبة في قلبه يُحرَم النجاة. وحينما يريد أحد من البوذيين أن يصبح من رهبانها، فلا شك أنه يريد ذلك رغبةً في النجاة، ولكنه بمجرد أن يصبح راهبًا يُحرَم من النجاة، إذ تولدت في قلبه رغبة في أن يُدخِل الآخرين في دينه. بل يمكن القول أكثر من ذلك، وهو أن بوذا قد حرم من النجاة – بحسب هذه النظرية– حين أراد أن يجعل الناس رهبانًا، إذ قد تولدت في قلبه رغبة لجعل الناس رهبانا. ثم إذا كان البوذيون يريدون استقلال بلادهم فماذا يقال لهم بحسب هذا التعليم البوذي؟ هل يقال لهم ألا يرغبوا بالاستقلال؟ بل إذا استولى أحد على بلادهم فلْيَدَعوه يفعل ذلك وإلا سيُحرَمون النجاة؟

ولو قال البوذيون في الجواب إنها رغبات مباحة جيدة، فنقول لهم: لقد اعترفتم أن الرغبات نوعان: سيئة وحسنة، وعلى المرء أن يحقق الحسنة من الرغبات ويرتدع عن تحقيق السيئة منها، فثبت أن قولكم أن الإنسان يولَد سيئًا لوجود الرغبات فيه قولٌ باطل تماما، إذ قد اعترفتم بأنفسكم أن مِن الرغبات ما هو سيئ ومنها ما هو حسن، ومن واجبنا القضاء على السيئة منها وتحقيق الحسنة منها. وهذه هي وجهة نظر الاسلام. إذن، لم يعُدْ بيننا خلاف، بل هناك اتفاق.

قد يقول بوذي بسماع نقدنا هذا إنكم تقدّمون ديننا بطريق خاطئ حين تقولون إن البوذية تريد منا ألا نرغب في الاستقلال بل نرغب في العبودية والرق،

وألا نرغب في الصحة بل في المرض، وألا نرغب في زوجة جميلة بل في دميمة، وألا نرغب في العلم بل في الجهالة، وتنسبون لنا رغبات أخرى، مع أن نظريتنا تقول إن الرغبات سيئة في كل حال سواء كانت في أشياء جيدة أم سيئة. إننا نريد القضاء على الرغبات ولا نقول أنّا علينا أن نرغب في شيء حسن ولا نرغب في شيء سيئ، بل نقول يجب ألا يرغب الإنسان البتة لا رغبة حسنة ولا سيئة، لأن في هذا نجاته.

ونقول في الجواب: نحن نقبل جدلاً أن هذا هو قصدكم، حيث تقولون إن على المرء أن لا يرغب أية رغبةٍ حسنةً كانت أم سيئة، ولكن السؤال هنا: ماذا يفعل الإنسان في هذه الحالة؟ فمثلا إذا سأله أبوه: هل تريد الزواج؟ فهل يقول له: لا أرغب في الزواج ولا في العزوبة! وإذا وصل الزوج إلى بيته وقالت له زوجته: الطعام جاهز، فهيّا بنا نأكل، فهل يقول لها: لا أرغب في الطعام ولا في أن أبقى جائعًا. باختصار، لو سلّمنا بصحة هذه العقيدة البوذية لوجد البوذيون عند كل خطوة مشاكلَ عويصة. لنفترضْ أن بوذيا يأتي مجلسا، وبحسب هذه العقيدة ستأخذه الحيرة في أن يجلس أو لا يجلس، فلو جلس فقد حقّق رغبةً، وإذا رجع فقد حقق رغبة أيضًا، وهكذا سيظل في حيرة من أمره بحيث لن يبقى له إلا أن يجلس ثم يقف، ثم يجلس ثم يقف، وهكذا. ثم إذا سئل هذا: أي حكومة تريد؟ فيقول لا أريد حكومة جيدة ولا سيئة، لا منظمةً ولا فوضوية. وإذا قيل له: مَن ذا الذي تصوّت له، قال: لا أريد أن أصوت لهذا ولا لذاك، فيقول له المسؤول: لماذا جئت هنا إذن، اذهبْ من هنا، فيقول له: لا أريد الذهاب ولا البقاء.

باختصار، إنها عقيدة باطلة لا أساس لها، ومهما شرحناها فلن تكون النتيجة إلا الضحك عليها.

ولو قالوا: إننا نقصد من ذلك أن يرغب الإنسان رغبة صالحة، لقلنا: هذا يعني أن في الإنسان خيرًا وصلاحًا أيضا، وهذا ما نؤمن به بأن في الإنسان رغبات حسنة وسيئة، وإذا أخضع رغباته الفطرية للعقل والمصلحة سُمِّيَ صالحًا، أما إذا لم يخضعها للعقل والمصلحة سُمِّيَ سيئا، فالطريق السليم هو استثارةُ الفطرة السليمة في الإنسان

وحمايتُه من أن يحقق مقتضياته الطبعية الفطرية بطريق خاطئ، وليس أن نعتبر فطرته سيئة نجسة.

باختصار، إذا قال البوذيون إننا نقصد أن على الإنسان أن تكون رغبته صالحة، فثبت أن في الإنسان خيرًا، وأن عليه أن يرغب في الخير دائمًا، وإذا ثبت أن فيه رغبات فطرية، فنسأل: ما الذي هو سيئٌ في فطرته؟ كلا، بل كل مقتضياته الفطرية حسنة، وإنما استعمالها السيئ هو الذي يجعلها سيئة. فمثلا إن فطرة الإنسان تأمره بأكل الطعام، ولكنها لا تأمره أن يأكل طعام غيره، ولو فعل ذلك فهذا ذنبه هو. إن فطرته لم تأمره أن يسلب غيرَه طعامه ويأكله، وإنما أمرته أن يأكل فقط. ولكنه عندما يجوع ولا يكون عنده طعام يفكر أن يسرق طعام غيره ويأكله، وهكذا يستعمل هذه الرغبة الفطرية في غير محلها. أو مثلاً حينما يرغب الإنسان في الزواج تقول له فطرته أن يتزوج فقط، ولا تقول له أن يأخذ زوجة غيره. أو تقول له فطرته مثلاً أن ينفق المال، ولكن لا تقول له أن ينفقه في غير محله. إنما ينشأ فيه هذا الفساد بسبب المحيط والظرف الذي فيه، أما فطرته فلا تأمره بهذا الفساد والخطأ أبدًا. ثم هناك غريزة الشجاعة في فطرة الإنسان التي يحمي بها الآخرين من خسائر فادحة مضحيا بنفسه أو ماله، ولكنه أحيانا يشرع في ظلم الناس، وليس الظلم إلا استعمالا خاطئا لغريزة الشجاعة الفطرية. لقد خلق الله تعالى فيه الشجاعة ليضحي من أجل الآخرين، ولكنه يسيء استعمالها في بعض الأحيان ويغصب حقوق الآخرين. أو مثلاً قد خلق الله في فطرة الإنسان غريزة الرقيّ، ولكنه حين يسيء استعمالها يحوّلها إلى الحسد، فيريد أن يترقى هو دون الآخرين.

باختصار، لم يجعل الله تعالى في فطرة الإنسان أي رغبة سيئة، وإنما استعمال هذه الغرائز والمقتضيات الفطرية هو السيئ. والآن بقي السؤال التالي: هل خلق الله تعالى في الإنسان الشجاعة والسخاء والمحبة وغيرها من الغرائز الفطرية من أجل أعمال حسنة أم سيئة؟ فلو قيل: إنه زُوِّدَ بها ليقوم بها بأعمال سيئة، فلا بد أن يكون العمل السيئ هو البِرّ، لأن هذا ما يريد الله تعالى منه، وإلا قيل إن الله تعالى خلق فينا هذه

الغرائز لنعمل بها السيئات، ولكنا حين نعملها يغضب ويسخط علينا. أما لو قيل في الجواب إن الله تعالى قد خلق فينا هذه الغرائز لنحسن استعمالها ونعمل بها الحسنات، ثبت أن فطرة الإنسان حسنة وليست بسيئة. نحن لا ننكر أن الظروف التي يمر بها الإنسان تكون حسنة وسيئة، فيميل بسببها إلى الخير تارة وإلى الشر تارة أخرى، ولكن ما تقتضيه منه الفطرة ليس سيئا.

وبسبب عدم فهم هذه الحقيقة وُجدت ديانة الدامّارغيين الذين تطرّفوا ومالوا إلى طرف آخر من هذه النظرية، فديانتهم ديانةُ تحقيقِ الرغبات، أما البوذية فهي ديانةُ كبحِ الرغبات، حيث تركّز هذه على أن الرغبات كلها سيئة ومِن أول واجبات المرء القضاء عليها كليةً وإلا فلن يحظى بالنجاة، وأما الدامارغية فترى أن غاية خلق الإنسان لا تتحقق إلا إذا راعى رغباته كلها وعمل على تحقيقها كلها، لأن الله تعالى ما دام هو خالق فطرة الإنسان، فكل رغبة تتولد في قلبه تكون موافقة لمشيئته تعالى.

ولكنا نقول لا شك أن الله تعالى هو خالق الفطرة الإنسانية إلا أن ظهورها يتأثر بحكم البيئة والمحيط. فمثلاً يخلق الله تعالى صورة الطفل كاملة، ولكن يمكن أن تتشوه صورته نتيجة مرض أو إصابة وهو في رحم أمه؟ كذلك تمامًا قد يُفسد المحيطُ فطرة الإنسان، فلا يصح إذن القول أن كل رغبة تتولد في قلب الإنسان تكون حسنة حتمًا. كلا، فما دامت ظروفه قد جعلته سيئا، فلا بد أن تتولد في قلبه رغبات سيئة، ولو عمل بها لأضرّ جسمه وروحه.

باختصار، يقول الدامّارغيون: إذا كانت فطرة الإنسان صالحة فكل رغباته صالحة، وإذا كانت فطرته سيئة فإن ما يسمى سيئًا هو الصلاح بعينه، ولذلك يبيح هؤلاء شرب البول وأكل البراز ولحم الميتة وغيرها، ويؤثرون النجاسة على النظافة. الحق أنهم قد سمّوا ما هو نتيجة المحيط فطرةً، مع أنه ليس بفطرة. إن ما نقوله هو إن الغرائز البشرية غير المعيّنة هي التي تُستعمل للخير، ولا نقول أن الرغبات التي تتولد في قلب الإنسان بحكم ظروف معينة هي أيضا خير. كلا، إن المقتضيات المعينة التي تتولد في قلبه نتيجة ظروف معينة لا نسمّيها فطرة، ولا يقول القرآن الكريم أنها

تكون حسنة دائمًا. ولكن هؤلاء القوم قد تعثروا هنا للأسف، فقالوا إذا كانت الفطرة نقية فإن ما تعتبرونه سيئا ليس بسيئ بل هو حسن، وإذا كانت الفطرة سيئة فإن ما تسمّونه سيّئًا هو خير بعينه وليس بسيئ. ولكن الحق أن الفطرة الإنسانية نفسها ترفض ما يقوله الدامارغيون، ولذلك نراهم يُخفون أنفسهم عن الناس ويخافون أن يظهروا لهم، مما يؤيد رأينا.

وتقول العقيدة الثانية أن الإنسان خُلق صالحًا، ولكن آدم الأول أذنب، فصار الجميع آثمين. لو كان أصحاب هذه العقيدة دهريين لناقشناهم بأسلوب آخر، لكنهم ينتمون إلى ديانة. وإننا نجد أن ديانتهم نفسها ترفض عقيدتهم. فأول سؤال نوجهه إليهم هو: إذا كان صحيحًا أن آدم الأول أذنب، فانتقلت خطيئته إلى أولاده بالوراثة بحيث أصبح من المستحيل أن يتخلصوا منها بدون مساعدةِ مساعِد، فيجب أن يكون جميع الناس قبل بعثة المسيح محرومين من النجاة، لأن الفداء لم يقدّمه إلا المسيح عليه السلام، ومن آمن بفدائه نال النجاة، أما الذين خلوا من قبله فمن المستحيل أن ينالوا النجاة حسب هذه العقيدة. فالسؤال الذي يفرض نفسه هنا: هل جميع الناس قبل إصلاح الفطرة من خلال فداء المسيح عليه السلام كانوا آثمين غير ناجين؟

والحق أن الكتاب المقدس نفسه يردّ على هذا السؤال، فهو لا يعتبر آدم ملعونا، بل يخبرنا أن الله تعالى كان راضيا عنه حتى بعد أن خدعه الشيطان، حيث ورد أن آدم عليه السلام لما أخطأ فتعرّى "وَصَنَعَ الرَّبُّ الإِلهُ لآدَمَ وَامْرَأَتِهِ أَقْمِصَةً مِنْ جِلْدٍ وَأَلْبَسَهُمَا" (التكوين ٣: ٢١). فإذا كان الله تعالى قد سخط على آدم وأخرجه مع أولاده الروحانيين فكان يجب أن يُظهِر سخطه عليه بعد ذلك وليس أن يصنع له ولزوجته ثيابًا من الجلد ويستر عورتهما. إن هذا يؤكد أن الله تعالى كان راضيا عن آدم عليه السلام بعد هذا الحادث أيضا.

ثم ورد أن الله تعالى قال للملائكة: "هُوَذَا الإنسان قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا عَارِفًا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ." (التكوين ٣: ٢٢). فكيف يمكن أن يكون ملعونا مَن أصبح مثل الله وملائكته في معرفة الخير والشر؟ كلا، بل هذا مقام عالٍ تبوّءه آدم عليه السلام.

ثم جاء أخنوخ بعد آدم، وكان أبًا لجدّ نوح، وقد ورد عنه: "فَكَانَتْ كُلُّ أَيَّامِ أَخْنُوخَ ثَلاثَ مِئَةٍ وَخَمْسًا وَسِتِّينَ سَنَةً. وَسَارَ أَخْنُوخُ مَعَ اللهِ، وَلَمْ يُوجَدْ لأَنَّ اللهَ أَخَذَهُ". (التكوين ٥: ٢٣-٢٤).

وقد وردت خلاصة هذه الفقرة في التوراة كالآتي: "خبرُ صلاح أخنوخ وذهابه إلى الله تعالى وهو حيّ".

هذه العبارة تكشف أن أخنوخ كان مرضيًا عند الله تعالى بحيث إن الله تعالى لم يتوفَّه كما يتوفى الآخرين، بل رفعه إلى السماء وهو حيّ، مع أن العقيدة المسيحية تقول إنه كان في بنود العقوبة المفروضة على آدم بسبب ذنبه أنه لن يعيش في الدنيا للأبد، بل يصبح فريسة للموت يوما ما، فقد ورد في ذكر هذه العقوبة "لأَنَّكَ تُرَابٌ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ" (التكوين ٣: ١٩). مما يعني أن العقيدة المسيحية تقول أنه بسبب خطيئة آدم نال الإنسان عقوبة الموت وأُجبرَ على العيش على الأرض، ولولا ذنب آدم لعاش الإنسان أبدًا و لم يضطر للعيش على الأرض. بينما تخبرنا الفقرة السابقة من التوراة أن الله تعالى لم يُمِت أخنوخ، بل رفعه إلى السماء حيًّا. فلو اكتفت التوراة هنا بذكر صلاح أخنوخ لكان في ذلك دليل على كون الناس صلحاء من دون مجيء المسيح أو من دون الإيمان بفدائه، ولكن التوراة تذكر هنا أمرًا إضافيا بأن أخنوخ نجا من الموت ورفع إلى السماء حيًّا، مع أن الموت والعيش على الأرض كان جزءا من العقوبة المترتبة على خطيئة آدم؛ فثبت أن الذي نجا من الموت وصعد إلى السماء حيا كان بريئًا من الخطيئة المتوارثة تمامًا، إذ لو ورث شيئا من الخطيئة الموروثة لمات حتمًا بحسب العقيدة المسيحية، ولكنه لم يمت وصعد إلى السماء حيا، مما يدل أنه لم يأخذ أي نصيب من الخطيئة الموروثة.

ثم ورد فيها أيضا: "وَسَارَ أَخْنُوخُ مَعَ اللهِ". (التكوين ٥: ٢٤). وسيرُه مع الله تعالى يعني أنه كان يقضي حياته في طاعة الله، و لم يتوجه إلى شيء دونه ﷻ. ومن قضى حياته في طاعة الله فقط وكان شغله الشاغل أداء ما فرض الله عليه من واجبات، لم يستطع التدبير لمعاشه كالآخرين؛ إذن فسيره مع الله تعالى يعني أنه كان يجد رزقه بلا جهد، مما يعني أنه لم يعاقَب بالعقوبة الثانية المترتبة على خطيئة آدم

والمذكورة في التوراة كالآتي: "بِعَرَقِ وَجْهِكَ تَأْكُلُ خُبْزًا حَتَّى تَعُودَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا، لأَنَّكَ تُرَابٌ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ" (التكوين ٣: ١٩). لقد تبين من هذه الفقرة أن آدم عليه السلام عوقب بعقوبتين، إحداهما أنه يأكل دومًا بعرق جبينه، وثانيهما أنه لن يخلد في هذه الدنيا أبدا، بل لا بد له من شرب كأس الموت المريرة. ولكن أخنوخ لم يشرب كأس الموت المريرة، كما لم يأكل بعرق جبينه، إذ غاب في السماء حيًا من دون موت، ثم ظل يسير مع الله تعالى دومًا. مما يوضح أن أخنوخ -بحسب العقيدة المسيحية- ظل محفوظا من الخطيئة الموروثة وعثراتها بصورة قطعية. فلو انتقلت الخطيئة الموروثة إليه لأكل بعرق جبينه ومات ودُفن في الأرض، ولكنه لم يأكل بعرق جبينه و لم يمت، مما يدل أنه كان صالحا طاهرا بحسب العقيدة المسيحية نفسها.

ثم جاء نوح عليه السلام، وقد ورد في التوراة عنه أن لامك سمّى ابنه نوحًا وقال: "هذَا يُعَزِّينَا عَنْ عَمَلِنَا وَتَعَبِ أَيْدِينَا مِنْ قِبَلِ الأَرْضِ الَّتِي لَعَنَهَا الرَّبُّ" (التكوين ٥: ٢٩).. أي بواسطة نوح ستزول اللعنة التي ألقيت على الأرض نتيجة خطيئة آدم والتي بسببها سيكسب الإنسان رزقه بجهد ومشقة دائما.

لقد بيّنّا آنفًا أن ذنب آدم تسبب في عقوبتين، أولاهما: أن الإنسان يكسب رزقه بمشقة وعناء، وثانيتهما: أنه يموت يومًا ويدفن في الأرض. أما لامك فسمّى ابنه نوحًا قائلا: "هذا يُعَزِّينَا عَنْ عَمَلِنَا وَتَعَبِ أَيْدِينَا مِنْ قِبَلِ الأَرْضِ الَّتِي لَعَنَهَا الرَّبُّ" فهذا يعني أنه أَمِلَ أن ينجوا بسبب نوح من هذه المشقة ويرتاحوا، مما يعني أن نوحا عليه السلام جاء وحرَّرهم من هذه اللعنة.

ولو قيل هنا أن لامك قد أخطأ في عقد آماله على نوح بدون مبرر، قلنا: لماذا سجّلته التوراة إذن؟ إن ورود قوله هذا في التوراة يدل على أنه قد عقد هذه الآمال على نوح بأمر الله تعالى، وكان على نوح عليه السلام أن يحقّق أمله في حياته، فيرفع عن الأرض اللعنةَ التي صُبّت عليها بسبب خطيئة آدم عليه السلام.

ثم ورد عن نوح عليه السلام: "كَانَ نُوحٌ رَجُلاً بَارًّا كَامِلاً فِي أَجْيَالِهِ. وَسَارَ نُوحٌ مَعَ اللهِ"(التكوين ٦: ٩). ومن كان صادقًا وكاملا فكيف يمكن أن يكون آثما؟ وإذا

كان نوح عليه السلام يسير مع الله تعالى كما هو مذكور هنا، فهذا يعني أنه كان يعمل بحسب مشيئة الله دائما، فكيف يُعدّ آثمًا مَن هو صادق وكامل ولا يأتي ما يخالف مشيئة الله تعالى؟

ثم قال الله تعالى لنوح عليه السلام: "أُقِيمُ عَهْدِي مَعَكَ" (التكوين ٦: ١٨). وكيف لا يُعَدُّ ناجيًا مَن يختاره الله تعالى لإقامة العهد معه؟

ثم ورد عن نوح عليه السلام أنه أقام مذبحا وعبد الله فيه، "فَتَنَسَّمَ الرَّبُّ رَائِحَةَ الرِّضَا وَقَالَ الرَّبُّ فِي قَلْبِهِ: لا أَعُودُ أَلْعَنُ الأَرْضَ أَيْضًا مِنْ أَجْلِ الإنسان" (التكوين ٨: ٢١)، وكأن الله تعالى أُعجبَ بعبادة نوح عليه السلام بحيث قال: "لاَ أَعُودُ أَلْعَنُ الأَرْضَ بعد ذلك". والسؤال هنا: ما دام نوح عليه السلام قد أزال اللعنة السابقة عن الأرض، فمن أين جاءت اللعنة الجديدة التي مسخت الفطرة الإنسانية، فجاء المسيح عليه السلام لإزالتها؟

ثم جاء إبراهيم عليه السلام وقد قالت التوراة إن الله قال له: "فَأَجْعَلَكَ أُمَّةً عَظِيمَةً وَأُبَارِكَكَ وَأُعَظِّمَ اسْمَكَ، وَتَكُونَ بَرَكَةً، وَأُبَارِكُ مُبَارِكِيكَ، وَلاَعِنَكَ أَلْعَنُهُ، وَتَتَبَارَكُ فِيكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ" (التكوين ١٢: ٢-٣). لقد ذُكرتْ هنا عدة أمور أوّلُها: سَأُبَارِكَكَ، ومَن جعله الله مباركًا لا يمكن أن يكون ملعونا. وثانيها: أنك بركة، أي أنك بركة متجسدة. وثالثها: أنك لن تكون مباركا ولن تتبارك الدنيا بك فحسب، بل كل مَن باركك سوف أباركه. وجوابًا على هذه الفقرة نفسها قد علّم النبي ﷺ أُمتَه الدعاءَ التالي: "اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد" (البخاري: كتاب الدعوات).. أي إلهي، لقد وعدتَ إبراهيم أن تباركه، وتبارك مباركيه، وبحسب وعدك هذا نبارك إبراهيم، فاملأْ بيوتنا ببركاتك وأفضالك. مما يعني أن مُبارِكي إبراهيم عليه السلام لا يمكن أن يكونوا ملعونين، وأما الذين يلعنون إبراهيم فيستحيل أن ينالوا نصيبا من بركات الله؛ والنصارى يقولون إن الله تعالى لعن الدنيا بسبب خطيئة آدم، بينما يتضح من هذه الفقرة أن إبراهيم والذين معه لا يمكن أن يكونوا

ملعونين، وأن الذين يلعنونه ملعونون حتمًا، فثبت أن عقيدة المسيحيين هذه باطلة بحسب هذه الفقرة التوراتية.

ثم كان في زمن إبراهيم عليه السلام شخص اسمه مَلْكِي صَادَقَ مَلِك سَالِيم، وقد ورد في وصفه في الإنجيل: "وكانَ مَلْكي صَادَقُ هذا مَلِكَ ساليمَ وكاهِنَ الله العليِّ..وتفسيرُ اسمِهِ أوَّلاً مَلِكُ العَدل، ثمَّ مَلِكُ ساليمَ، أي مَلِكُ السَّلام" (الرِّسَالَةُ إلى الْعِبْرَانِيِّينَ ٧: ١-٢).. أي أنه اسمٌ على مسمّى. ثم ورد عنه: "بلا أَب، بلا أُمٍّ، بلا نَسَب. لا بَدَاءَةَ أَيَّامٍ لَهُ وَلا نِهَايَةَ حَيَاةٍ، بَلْ هُوَ مُشَبَّهٌ بِابْنِ الله. هذَا يَبْقَى كَاهِنًا إِلى الأَبَدِ." (الرِّسَالَةُ إِلى الْعِبْرَانِيِّينَ ٧: ٣). ومثل هذا الإنسان لا بد أن يكون قد نجا من كل هذه العقوبات.

قد يقول هنا النصارى أن مَلْكِي صَادَقَ نال النجاة لأنه كان بدون أب وبدون أم، ولم يرث الخطيئة الموروثة. فنقول في الجواب: إذا كان مُصلِحون بدون أب وبدون أم قد جاءوا لإصلاح الدنيا قبل المسيح عليه السلام فما الخصوصية للمسيح؟ إنكم تركّزون على عصمة المسيح وعلى فدائه بحجة أن الدنيا كانت بحاجة إلى مصلح بريء من الإثم، وحيث إنه لم يوجد أي مصلح بريء من الإثم منذ آدم إلى المسيح، بل كل إنسان جاء ملوثا بالخطيئة الموروثة فكان لزامًا أن يأتي ابن الله البريء من الإثم ليكون فداءً لذنوب الناس، ولكن هذه الفقرة تؤكد أن مَلْكِي صَادَقَ جاء قبل المسيح وكان هذا الملك بريئا من الإثم تماما، إذ لم يكن له أم ولا أب، وبالتالي لم يكن فيه نصيب من الخطيئة الموروثة.

كذلك تؤكد التوراة صلاح وطهارة إسحاق ويعقوب ويوسف وموسى كلهم عليهم السلام، والسؤال: إذا كان كل هؤلاء قد نالوا النجاة قبل المسيح بدون الإيمان بفدائه، فلم لا يستطيع الناس النجاة في المستقبل من دون فدائه؟ فالسبيل الذي به نال الأولون النجاة سينالها به الآخرون، فأي حاجة إلى تضحية المسيح وفدائه؟ إن نجاة الأولين دليلٌ على أن الفطرة الإنسانية لم تتلوث بأي خطيئة موروثة، وإلا لما كان هؤلاء من أحبّاء الله ومقرّبيه.

والسؤال الثاني هو: هل أحدثَ مجيء المسيح عليه السلام تغيُّرًا يمكن أن نقول بعده إن الإنسان نجا من الخطيئة التي تلوثت بها فطرته بالوراثة؟ الواضح أن الإثم قد ازداد بعد المسيح عليه السلام، وكذلك الشرك والظلم والكذب والخداع والغش، حتى إن المسيحيين أنفسهم يشتكون من ظلم بعضهم بعضًا. فإذا كانت الخطيئة الموروثة قد صارت مغفورة للناس بعد حادث فداء المسيح فلماذا ازداد الإثم بعده؟

يجيب المسيحيون على هذين السؤالين بجواب فلسفي يجب أن ينتبه له أفراد جماعتنا جيدًا. يقولون إننا لا ندّعي أن مجرد الإيمان بالمسيح ينجّي المرء من الإثم، بل نقول أنه بعد الإيمان بكفارة المسيح ينجح المرء في تحقيق رغبته لأن يكون صالحا، أما بدون الإيمان به فلا. فلو أريتمونا ملايين المسيحيين الآثمين فلا حرج ولا ضير، إذ لا يمكنكم أيضًا الادعاء أن كل إنسان يصير صالحًا بعد الإيمان بمحمّد، إنما تقولون إن الإيمان بمحمد يزوّد الإنسان بقدرة إذا استغلّها صار صالحا؛ كذلك تمامًا نقول من المحال أن ينال أحد النجاة قبل الإيمان بفداء المسيح، لأنه ملوث بالخطيئة الموروثة التي تحول دون رقيه الروحاني، أما إذا آمن بفدائه كانت هناك إمكانية لنجاته، فنحن ندّعي بإمكانية النجاة وليس أن كل من يؤمن بفداء المسيح نال النجاة وإن لم يستغلّ كفاءاته الصالحة. كلا، بل كما أن آدم أذنب كذلك يمكن أن يذنب الناس الآن أيضا، فإذا أرادوا النجاة من الإثم فيمكنهم ذلك الآن لأن الإثم السابق قد أُزيل عنهم بفداء المسيح، والإيمان به قد زوّدهم بالقدرة على فعل الخيرات مستقبلا.

وليكنْ معلومًا بصدد هذا الجواب المسيحي أن التوراة تشهد على أن كثيرين تجنبوا الإثم قبل مجيء المسيح أيضا، فما دام الأولون تجنبوا الإثم فكيف لا يتجنبه الناس الآن بدون الإيمان بفداء المسيح؟ وما دام الأولون قد نالوا النجاة بدون الإيمان بفدائه وساروا مع الله تعالى ونجوا من الموت حيث ورد "صَعِدَ إِيلِيَّا فِي الْعَاصِفَةِ إِلَى السَّمَاءِ" (اَلْمُلُوكِ الثَّانِي ٢: ١١)، فأين الخطيئة الموروثة إذن؟ وما دام الذين أتوا بعد المسيح لا يزالون ملوثين بالإثم، فما فائدة الفداء؟

يقول النصارى في الجواب: إن الذين نجوا من الإثم قبل المسيح عليه السلام إنما نجوا لإيمانهم بفدائه، إذ أخبر الله تعالى أن ابن الله سيأتي مستقبلا فيصلبه الناس ويضحّون به ليكون فداءً لذنوبهم، وأنهم بمجرد سماع هذا الخبر قالوا: آمنّا وصدّقنا؛ فلما قال إبراهيم إني أؤمن بالمسيح الآتي نجا من الإثم. ويقدّم النصارى نبوءات لإبراهيم عليه السلام تنطبق في زعمهم على المسيح عليه السلام.

والجواب أن نبوءات إبراهيم عليه السلام هذه موضع جدل في حد ذاتها أولاً، وثانيًا إذا كان إبراهيم قد آمن بالمسيح فكيف عُرِفَ أن نوحًا وأخنوخَ أيضا كانا يعلمان أن ابنًا لله تعالى سيظهر مستقبلا؟ لو قالت التوراة مثلاً إن كل نبي آمنَ بابن الله هذا – وإنْ لم تذكر أن أخنوخ أو نوحًا آمن بالمسيح– لكان هذا كافيًا وقلنا: ما دام الكتاب المقدس يخبر أن كل نبي قد آمن بابن الله فلا حاجة الآن لأن يثبت النصارى بذكر اسم كل نبي أنه كان يؤمن بابن الله؛ ولكن المشكلة أنه لم ترِدْ في الكتاب المقدس عبارة بهذا المعنى مطلقًا، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية إنه يخبر أن أخنوخَ كان يسير مع الله تعالى، ولا يذكر الكتاب المقدس أنه كان يؤمن بابن الله. كذلك قد ذكر الكتاب المقدس أن آدم عليه السلام كان مرضيًا عند الله تعالى ولكنه لم يذكر في أي مكان أن الله تعالى أخبر آدم أن ابنه سيأتي إلى الدنيا، فيُصلَب فداءً لذنوب الناس، وأن عليه أن يؤمن به. كذلك يتحدث الكتاب المقدس عن صلاح إشعياء وحزقيال وغيرهما من الأنبياء، ولكنه لم يذكر في أي موضع أنهم آمنوا بفداء المسيح، بل إنه لم يقل أن إبراهيم عليه السلام كان مؤمنًا بكفّارة المسيح عليه السلام. ولو سلّمنا جدلاً أن هناك نبوءة لإبراهيم عن المسيح فإنما معناه أنه كان أخبر بمجيء المسيح بعده، إذ لا تذكر التوراة أبدًا أن إبراهيم أعلن أن المسيح سيفدي نفسه لينجي الناس من عقوبة ذنوبهم، وأنه يؤمن بفدائه وكفّارته. لذا فلو سلّمنا جدلاً بوجود نبوءة لإبراهيم في التوراة بحق المسيح، فإنما معناها أنه بشَّر بمجيئه بعده. فكيف ثبتت بذلك نجاة إبراهيم، وكيف نجا من الذنوب؟ ذلك أن عقيدة الفداء المسيحية ليس أساسها الإيمان بابن الله، إنما أساسها الإيمان بصلب ابن الله وفدائه، ولكنا لا نجد في أي مكان في التوراة ما يؤكد أن إبراهيم كان يؤمن بفداء المسيح.

ثم إن نبوءات إبراهيم عليه السلام لا تنطبق على المسيح عليه السلام؛ فذات مرة كنت في نقاش مع قسيس فقلت له: كيف كان الأولون ينالون النجاة؟ قال: بالإيمان بالمسيح. قلت: هل آمن إبراهيم بالمسيح؟ قال: نعم؛ فقد قال الله تعالى لإبراهيم: "وَيَرِثُ نَسْلُكَ بَابَ أَعْدَائِهِ، وَيَتَبَارَكُ فِي نَسْلِكَ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ" (التكوين ٢٢: ١٧-١٨)، فهذه النبوءة الإبراهيمية تتعلق بالمسيح، وقد تحقّقت بالمسيح، لذلك نؤمن أن إبراهيم قد آمن به. فقلت له: إن هذه النبوءة تخبر أن الموعود سيكون من نسل إبراهيم، وأنت تعلم أن الأولاد يُنسَبون إلى الرجل دائما، فمن المحال أن يعتبر مصداقًا لهذه النبوءة إلا مَن كان من نطفة الرجل، وليس في الدنيا إلا مدّعيانِ اثنان يدّعي كل منهما أنه مصداق نبوءة إبراهيم، أحدهما هو محمد رسول الله ﷺ الذي كان له أب، والآخر هو المسيح الذي لم يكن له أب، فليس صعبًا أن تعرف ما إذا كانت هذه النبوءة تنطبق على مَن ليس له أب، أم على من له أب وهو من نسل إبراهيم فعلا؟ تخبر التوراة أن الموعود سيكون من نسل إبراهيم، أي أنه سيكون من نطفة الرجل، فكيف يُعتبر مِن أولاد إبراهيم مَن ليس مِن نطفة رجل؟

علمًا أن المسيحيين يواجهون هنا مشكلة كبيرة، فمن ناحية يريدون تطبيق هذه النبوءة على المسيح عليه السلام، ومن ناحية أخرى يجدون أن المسيح لم يكن له أب حتى يعتبروه من نسل إبراهيم عليه السلام، فأَتَوا بحلّ لهذه المعضلة وكتبوا في الأناجيل أن المسيح عليه السلام كان ابن يوسف النجار، ثم ربطوا نسبه بداود عليه السلام، مع اعترافهم أن المسيح وُلد من بطن عذراء! (متى ١: ٦-١٦)

باختصار، فأولاً لا تتحدث هذه النبوءة الإبراهيمية عن فداء المسيح، ولا تقول إن إبراهيم آمن بفدائه، كل ما فيها هو أن الله تعالى وعد إبراهيم بالبركة في أولاده، ولكن السؤال هنا: هل نطبق هذه النبوءة على مَن ليس له أب، أم على مَن له أب؟ وليس خفيًّا أن الولد لا يُنسَب إلى الأم بحسب العقيدة اليهودية، بل إلى الأب، فثبت أنها تنطبق على مَن له أب، وليس على من هو بدون أب ولا يمكن أن يُعَدّ من نسل إبراهيم.

والسؤال الثالث الذي نوجّهه إليهم هو: كيف صار المسيح بريئًا من الإثم؟ فيقولون: لأنه وُلِدَ مِن دون أب. فنقول لهم: إذا كان الإنسان ينجو من الإثم نتيجةَ ولادته من دون أب، فإن مَلْكِي صَادَقَ مَلِك سَالِيم لم يكن له أبٌ ولا أم، فلِمَ لا تعتبرونه بريئًا من الإثم؟ ثم إذا كان الإنسان ينجو من الإثم بولادته من دون أب، فكيف يُعَدُّ آدم آثمًا مع أنه لم يكن له أب ولا أم؟ إذا كانت الولادة من دون أب تجعل المرء بريئا من الآثام، فيجب أن تعتبروا آدم بريئا من الإثم، وإذا كان الأمر كذلك فأين مكان الخطيئة الموروثة؟

ثم إذا كان الإنسان يصبح آثمًا لمجرّد تولُّده مِن جسم، فإن الإثم كما ينتقل إليه من أبيه فيمكن أن ينتقل إليه من أمه أيضًا، ويتضح من التوراة أن حواء هي التي ظهر منها الإثم في الواقع، إذ لخّص ناشرو التوراة الإصحاح الثالث من التكوين كالآتي: "في بيان أن الحيّة تخدع حواء، ويصبح الإنسان تعيسا بسبب الذنب، ويدعو الله الرجلَ والمرأة عنده، وتُلعَن الحيّةُ، ويُقطَع مع المرأة وعدُ نسلٍ خاص، وذكرُ أحوال عقوبة الإنسان، ولباسه الأول وخروج الاثنين من جنة عدن. وقد ورد في هذا الإصحاح ما يلي: "وَكَانَتِ الْحَيَّةُ أَحْيَلَ جَمِيعِ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي عَمِلَهَا الرَّبُّ الإِلهُ، فَقَالَتْ لِلْمَرْأَةِ: أَحَقًّا قَالَ اللهُ لا تَأْكُلاَ مِنْ كُلِّ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟ فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِلْحَيَّةِ: مِنْ ثَمَرِ شَجَرِ الْجَنَّةِ نَأْكُلُ، وَأَمَّا ثَمَرُ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ فَقَالَ اللهُ: لا تَأْكُلاَ مِنْهُ وَلاَ تَمَسَّاهُ لِئَلاَّ تَمُوتَا. فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: لَنْ تَمُوتَا! بَلِ اللهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلاَنِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ. فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلأَكْلِ، وَأَنَّهَا بَهجَةٌ لِلْعُيُونِ، وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ، فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ، وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا أَيْضًا مَعَهَا فَأَكَلَ." (التكوين ٣: ١-٦)

لقد تبين من هنا أن الشيطان أغوى حواء أولاً، ثم اشترك آدم في هذا الخطأ بتحريض منها، فقال الله تعالى لآدم: "هَلْ أَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ أَنْ لا تَأْكُلَ مِنْهَا؟ فَقَالَ آدَمُ: الْمَرْأَةُ الَّتِي جَعَلْتَهَا مَعِي هِيَ أَعْطَتْنِي مِنَ الشَّجَرَةِ فَأَكَلْتُ. فَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ لِلْمَرْأَةِ: مَا هذَا الَّذِي فَعَلْتِ؟ فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: الْحَيَّةُ غَرَّتْنِي فَأَكَلْتُ"

(التكوين ٣: ١١-١٣). لقد تبيّنَ من هنا أن الشيطان ذهب أولاً إلى حواء وأغواها، فقامت هي بإغواء آدم. وهذا يعني أن حواء كانت أشدَّ خطأً وإثمًا من آدم، إذ تورطَ آدم بهذه الخطيئة بتحريض منها.

فقلتُ للقسيس المذكور آنفًا: أَخبِرْني، مَن ذا الذي أغواه الشيطان أولاً آدم أم حواء؟ قال: حواء. قلت: لماذا أغواها أولاً، ولماذا لم يحاول إغواء آدم بدلاً منها؟ قال: لأنه كان يعلم أن حواء ستقع في خداعه بسهولة. قلت: لقد تبيّنَ من ذلك أن حواء كانت أشدَّ ميلاً إلى الإثم، ولذلك لم يذهب الشيطان إلى آدم مباشرةً لعلمه أنه لن يقع في فخّه بسهولة، فذهب إلى حواء ونجح.

ثم قلت له: أَخبِرْني الآن، هل كان المسيح ابنَ حواء أم ابن آدم؟ قال: ماذا تقصد من هذا السؤال؟ قلت: أيًّا كان قصدي، أرجوك أن تجيب على سؤالي؟ قال: كان ابن مريم. قلت: لو مزجنا الماء الساخن بالبارد، فهل تزداد سخونته أم تخفّ؟ قال: ستخفّ سخونة الساخن قليلا وتقلّ برودة البارد قليلا. قلت: القضية واضحة الآن، فلو كان للمسيح أب لوجد نصيبًا مِن قوة آدم الروحانية، ونال نصيبًا من ضعف حواء من طَرف أمه، وهكذا فإن امتزاج القوة الروحانية لآدم وضعف حواء كان سيقلل من تأثير الخطيئة الموروثة، ولكن المسيح لم يكن له أب، مما يعني أنه لم يجد نصيبا من روحانية آدم، وإنما أخذ نصيبًا من ضعف حواء فقط. فأَخبِرْني الآن كيف كان المسيح بريئًا من الإثم مع أنه كان من نسل حواء خالصًا، وورث منها الضعف كاملا، وهي الأكثر ذنبًا من آدم باعترافكم؟ فقال القسيس: هذه ليست بقاعدة، ألا يخرج الذهب من التراب؟ قلتُ: إذن قد انحلّت المشكلة، فكما أن الذهب يمكن أن يخرج من التراب، كذلك يمكن أن يخرج في نسل آدم صالحون. قال: لا لا، الذهب لا يخرج إلا من الذهب. قلت: إذن كيف صار المسيح بريئًا من الذنب رغم ولادته من بطن امرأة ما دام الذهب يخرج من الذهب لا من التراب؟ وإذا كان الذهب لا يخرج من التراب ولا من الذهب فمن أين يخرج؟

باختصار، إذا صحّ أولاً أن الذهب يمكن أن يخرج من التراب، فيمكن في هذه الحالة أن يخرج صالحون من آدم الآثم. وثانيًا: إذا كان الذهب لا يخرج من التراب،

بل يخرج من الذهب، فكيف صار المسيح بريئًا من الإثم رغم ولادته من بطن امرأة؟ لا يمكن أن تقوم الديانة المسيحية في أي من الحالتين.

وثالثًا: علينا أن نرى ما إذا كان يسوع يعتبر نفسه صالحًا أم لا. عند دراسة الإنجيل من هذا المنظور نجد فيه ما يلي: "وَإِذَا وَاحِدٌ تَقَدَّمَ وَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمُعَلِّمُ الصَّالِحُ، أَيَّ صَلاَحٍ أَعْمَلُ لِتَكُونَ لِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ؟ فَقَالَ لَهُ: لِمَاذَا تَدْعُونِي صَالِحًا؟♦ لَيْسَ أَحَدٌ صَالِحًا إِلا وَاحِدٌ وَهُوَ اللهُ. وَلكِنْ إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَدْخُلَ الْحَيَاةَ فَاحْفَظِ الْوَصَايَا" (مَتَّى ١٩: ١٦-١٧). فكأن يسوع يعترف هنا أنه ليس بصالح، فإذا كان الذي جاء ليجعل الناس صالحين ينكر صلاحه هو فكيف نصدّق أنه كان بريئًا من الذنوب وأنه جاء لتطهير الناس من المعاصي؟ الحق أنه ينطبق على حال المسيح والمسيحيين المثل السائر عندنا: المدعي خجول والشاهد جسور.

ورابعًا: إذا كان المسيح صالحًا بالفعل، وإذا كانت الدنيا قد نجت من الذنوب بفدائه وصارت عندها قابلية لفعل الخير، فلا بد من أن نُسلِّم أن المسيح كان النقطة الأخيرة مِن خلق العالم، لأن غاية خلق الإنسان قد تحققت بمجيئه. ولكن دراسة الإنجيل تكشف لنا أنه عليه السلام لم يكن النقطة النهائية لخلق العالم، بل ما دام المسيح ابنَ الله فكان لا بد أن يأتي الله بنفسه إلى الدنيا وذلك بحسب نبوءة المسيح نفسه التي قال فيها بلغة المجاز: "إِنْسَانٌ غَرَسَ كَرْمًا وَأَحَاطَهُ بِسِيَاجٍ، وَحَفَرَ حَوْضَ مَعْصَرَةٍ، وَبَنَى بُرْجًا، وَسَلَّمَهُ إِلى كَرَّامِينَ وَسَافَرَ. ثُمَّ أَرْسَلَ إِلى الْكَرَّامِينَ فِي الْوَقْتِ عَبْدًا لِيَأْخُذَ مِنَ الْكَرَّامِينَ مِنْ ثَمَرِ الْكَرْمِ، فَأَخَذُوهُ وَجَلَدُوهُ وَأَرْسَلُوهُ فَارِغًا. ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ أَيْضًا عَبْدًا آخَرَ، فَرَجَمُوهُ وَشَجُّوهُ وَأَرْسَلُوهُ مُهَانًا. ثُمَّ أَرْسَلَ أَيْضًا آخَرَ، فَقَتَلُوهُ. ثُمَّ آخَرِينَ كَثِيرِينَ، فَجَلَدُوا مِنْهُمْ بَعْضًا وَقَتَلُوا بَعْضًا. فَإِذْ كَانَ لَهُ أَيْضًا ابْنٌ وَاحِدٌ حَبِيبٌ إِلَيْهِ أَرْسَلَهُ أَيْضًا إِلَيْهِمْ أَخِيرًا، قَائِلاً: إِنَّهُمْ يَهَابُونَ ابْنِي! وَلكِنَّ أُولئِكَ الْكَرَّامِينَ قَالُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ: هذَا هُوَ الْوَارِثُ! هَلُمُّوا نَقْتُلْهُ فَيَكُونَ لَنَا الْمِيرَاثُ!

♦ في بعض الطبعات الحديثة للأناجيل قد حرفّوا قول المسيح عليه السلام هذا ليصبح: "لِمَاذَا تسْأَلُنِي أنا عَن الصلاح". (المترجم)

فَأَخَذُوهُ وَقَتَلُوهُ وَأَخْرَجُوهُ خَارِجَ الْكَرْمِ. فَمَاذَا يَفْعَلُ صَاحِبُ الْكَرْمِ؟ يَأْتِي وَيُهْلِكُ الْكَرَّامِينَ، وَيُعْطِي الْكَرْمَ إِلى آخَرِينَ." (مَرْقُسَ ١٢: ١-٩). والمراد من الكرم هنا هو نظام الهداية التي أقامها الله تعالى لإصلاح الناس، وصاحبُ الكرم هو موسى عليه السلام الذي جاء لإظهار جلال الله، والكرامون هم بنو إسرائيل الذين عُهدت إليهم رعاية هذا الكرْم، والعبيد الذين بعثهم صاحب الكرم لجلب الثمر هم أنبياء بني إسرائيل الذين أتوا بعد موسى تترا، ولكن الناس قتلوا بعضهم وآذوا بعضهم وحقّروا بعضهم. وفي الأخير أرسل الله ابنه- أي المسيح نفسه الذي كان أكثر قربًا وحظوة عند الله تعالى من جميع الأنبياء الذين أتوا بعد موسى- ولكن الناس لم يبالوا به وعلّقوه على الصليب. أما قول المسيح: هل تعرفون ماذا يحصل بعد ذلك؟ سيأتي صاحب الكرم نفسه، فيقتل أولئك الكرامين ويعطي الكرم لقوم آخرين، فيعني أنه سيظهر الآن في العالم ذلك النبي الذي يكون مجيئه بمنزلة ظهور الله، وأنه لن يكون من بني إسرائيل بل يكون من إخوانهم بني إسماعيل.

هذا التمثيل يوضح أن المسيح عليه السلام لم يكن النقطة الأخيرة من خلق العالم، وإلا لما أخبر ببعثة نبي بعده يكون مجيئه بمنزلة مجيء الله تعالى. وغني عن البيان أن الابن لا يمكن أن يُعتبر هو الأب في وقت واحد، فثبت أن الذي سُمّي أبًا في هذا التمثيل هو شخص آخر غيرُ الابنِ حتمًا. فما دام المسيح نفسه قد تنبأ عن بعثة شخص بعده لهداية العالم، فقد ثبت أن اعتبار المسيح النقطةَ الأخيرة من خلق العالم أمرٌ باطل. ذلك أنه ما دام الصلاح قد توطّد في العالم من خلال المسيح فليس هناك حاجة لبعثة أحد بعده، ولكن مثال الكرم نفسه يبين أن المسيح إذا كان ابن الله فكان لا بد أن يأتي بعده الأبُ.. اللهُ نفسه.

وكذلك يقول المسيح في موضع آخر: "إِنَّ لِي أُمُورًا كَثِيرَةً أَيْضًا لأَقُولَ لَكُمْ، وَلكِنْ لا تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَحْتَمِلُوا الآنَ. وَأَمَّا مَتَى جَاءَ ذَاكَ، رُوحُ الْحَقِّ، فَهُوَ يُرْشِدُكُمْ إِلى جَمِيعِ الحَقِّ، لأَنَّهُ لا يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ، بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ، وَيُخْبِرُكُمْ بِأُمُورٍ آتِيَةٍ. ذَاكَ يُمَجِّدُنِي، لأَنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا لِي وَيُخْبِرُكُمْ." (يُوحَنَّا ١٦: ١٢-١٤)

فالمسيح عليه السلام يقرّ هنا أنه سيأتي بعده شخص يُسمَّى روح الحق، وسيأتي بأحكام لم يستطع المسيح عرضها على الناس.. أي أنه سيكشف على الناس طرق الحق أكثرَ من المسيح، وأنه يعرض عليهم تعليمات أفضل من تعليمات المسيح، وليس هذا فحسب، بل سيؤتى كتابًا كلماته ليست كلمات فمه، بل هي كلها كلمات الله "لأَنَّهُ لا يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ، بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ". وليس مفهوم هذه الكلمات إلا أن الكتاب الذي ينزل على هذا الموعود القادم يتميز بميزة فريدة بأنه من أوله إلى آخره يحتوي على كلام الله تعالى، ولن يكون فيه شيء يقال عنه أنه كلام البشر لا كلام الله. فالمسيح عليه السلام هنا يخبر أولاً بمجيء موعود بعده، وثانيًا أن هذا الآتي سيأتي بكتاب معه، وثالثًا أن مِن ميزة كتابه أنه لن يكون فيه كلام بشر، بل تكون كل كلمة وكل حرف فيه مِن أوله إلى آخره كلام الله فقط. ووفقًا لهذه النبوءة بُعث نبينا ﷺ إلى الناس وقدَّم لهم شريعة فريدة بهذا الشأن بين الكتب السماوية كلها، فمثلاً إذا أجلت النظر في الكتاب المقدس وجدت فيه كثيرا من كلام البشر مخلوطا مع كلام الله، وإذا وجدتَ فيه أنباء لموسى عليه السلام وجدتَ فيه مكتوبا أيضًا: "فَمَاتَ هُنَاكَ مُوسَى عَبْدُ الرَّبِّ فِي أَرْضِ مُوآبَ حَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ، وَدَفَنَهُ فِي الْجِواءِ فِي أَرْضِ مُوآبَ، مُقَابِلَ بَيْتِ فَغُورَ، وَلَمْ يَعْرِفْ إِنْسَانٌ قَبْرَهُ إِلى هذَا الْيَوْمِ." (التثنية ٣٤: ٥-٦).

فكيف يمكن أن يكون من كلام الله الذي نزل على موسى بأن موسى مات ودفن في مكان كذا ولا يعرف قبره أحد حتى اليوم؟ الواضح أن هذه الكلمات أُضيفت إلى التوراة فيما بعد من قبل البشر بعد أن مات موسى عليه السلام ومضى على موته فترة طويلة و لم يعرف الناس مكان قبره.

كذلك هو حال أناجيل متى ومرقس ولوقا وغيرها، حيث نجد فيها كلام الله كما نجد فيها كلام البشر أيضًا، حيث يقول لوقا نفسه: "إِذْ كَانَ كَثِيرُونَ قَدْ أَخَذُوا بِتَأْلِيفِ قِصَّةٍ فِي الأُمُورِ الْمُتَيَقَّنَةِ عِنْدَنَا، كَمَا سَلَّمَهَا إِلَيْنَا الَّذِينَ كَانُوا مُنْذُ الْبَدْءِ مُعَايِنِينَ وَخُدَّامًا لِلْكَلِمَةِ، رَأَيْتُ أَنَا أَيْضًا إِذْ قَدْ تَتَبَّعْتُ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الأَوَّلِ

بتَدْقِيق، أَنْ أَكْتُبَ عَلَى التَّوَالِي إِلَيْكَ أَيُّهَا الْعَزِيزُ ثَاوُفِيلُسُ، لِتَعْرِفَ صِحَّةَ الْكَلاَمِ الَّذِي عُلِّمْتَ بِهِ." (لُوقَا ١: ١-٤).

فثبت أن الأناجيل الحالية ليست إلا كتبًا ألفها البشر بعد وفاة المسيح عليه السلام، حيث جمعوا فيها شتى الروايات بترتيب معين، ولذلك إذا كنا نجد فيها كلامًا يمكن نسبتُه إلى الله تعالى، نجد فيها أيضا كلاما كثيرا دسّه البشر فيها من عند أنفسهم.

باختصار، ليس هناك كتاب سماوي هو كلام الله تعالى مِن أوله إلى آخره، فالتوراة والإنجيل وزاندافستا والفيدا وغيرها تجدها كلها قد تعرضت للعبث والتحريف بأيدي البشر. ستجد في كلٍّ منها شروحًا من قبل البشر إلى جانب كلام الله تعالى. والقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد المنزه تمامًا عن كلام البشر من بدايته إلى نهايته، فإن كل لفظ وحرف وحركة من أوله إلى آخره هو ما أنزل الله على محمد ﷺ، فهو الكتاب الوحيد الذي ينطبق عليه قول المسيح: "لأَنَّهُ لا يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ، بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ".

ثم يخبر المسيح عليه السلام في هذه النبوءة أن هذا الكتاب الموعود "يُخْبِرُكُمْ بِأُمُورٍ آتِيَةٍ"، بمعنى أن دين هذا النبي الموعود لن يُنسَخ أبدا، بل يستمر إلى يوم القيامة، ولن يأتي عليه زمان يستغني فيه الناس عن كتابه.

ثم يخبر المسيح عليه السلام: "ذَاكَ يُمَجِّدُنِي"، بمعنى أن الناس يكذّبونني ويعتبرونني ملعونا، حيث يقول اليهود إن المسيح صار ملعونا بموته على الصليب، ويقول النصارى إنه دخل الجحيم بموته على الصليب من أجل ذنوب الناس، ولكن ذلك النبي الموعود "يُمَجِّدُنِي" ويكشف للناس عظمتي قائلا: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾(النساء:١٥٨).. أي أن من الخطأ القول أن الناس قتلوه أو صلبوه ليثبتوا أنه كان ملعونا. كلا، بل إنه قد حُفظ من القتل ومن الموت على الصليب. لا شك أن أحبابه وأعداءه قد أرادوا أن يثبتوا أنه ملعون، ولكن الله تعالى أكرمه وأعزه وخيّب العدو في مكائده.

وفي الأخير يخبر المسيح عليه السلام: "لأَنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا لِي وَيُخْبِرُكُمْ". وقوله "لأنه يأخذ مما لي" لا يعني أن النبي الموعود سيكون تابعًا له، بل المراد أن شريعته ستكون جامعة

لتعاليم الأنبياء السابقين كلهم، فتحوي شرائع وتعاليم نوح وإبراهيم وموسى وتعاليمي أنا أيضًا.

أما قوله ﷺ: "وَيُخْبِرُكُمْ"، فيعني أن كتاب هذا النبي الموعود لن يحتوي على كلمات فقط، بل سيكشف للعالم كل الحقائق بصورة عملية.

تكشف هذه الأنباء بجلاء أنه كان سيُبعَث بعد المسيح ﷺ موعودٌ هو أفضل منه، وكان من المقدر أن ينزل عليه كتاب جامع فريد حاوٍ للحقائق كلها، يكون من أوله إلى آخره كلام الله تعالى، ويكشف الحقائق كلها بصورة عملية. والسؤال هنا: إذا كان المسيح ﷺ قد حمل خطايا العالم كله فعلاً، وإذا كان الإيمان به كافيًا لنجاة البشرية، وإذا كان هو النقطة الأخيرة لنجاتهم، فكان لزامًا عليه أن يبين الحقائق كلها، ولكنه يعلن قائلا: إني لا أقدر على ذكر الحقائق كلها لكم، بل سيخبركم بها مَن سيأتي بعدي. مما يبين بجلاء أن المسيح الناصري ﷺ لم يكن يَعتبر نفسه النقطة الأخيرة من خلق العالم، بل هناك موعود آتٍ بعده وهو الذي ينال هذا الشرف والعظمة.

وخامسًا: إذا كان المسيح ﷺ قد صار فداء للبشرية فلا يمكن أن يصدَّق ذلك إلا إذا كان قد قدّم نفسه فداءً برضاه ورغبته، أما الذي يُعلَّق على الصليب قسرًا وجبرًا فلا يمكن أن يقال عنه إنه صار فداء عن طواعيته. إذا كان المسيح ﷺ قد جاء إلى الدنيا ليقدِّم الفداء حقًّا، فكان لزامًا عليه أن يسارع إلى الصليب فَرِحًا مبتهجًا، لأن الغرض الذي جاء من أجله قد تحقق، ولكن الإنجيل يخبرنا أنه لما علم أنه سيعلّق في الصباح قضى ليلته كلها في الدعاء والابتهال أمام الله تعالى وقال للحواريين مرارا وتكرارا: "اِسْهَرُوا وَصَلُّوا لِئَلاَّ تَدْخُلُوا فِي تَجْرِبَةٍ" (متى ٢٦: ٤١). كان ﷺ يدعو على جبل وكان الحواريون تحت الجبل، فكان ينزل من الجبل في قلق مرة بعد أخرى ليرى ما إذا كانوا يدْعون أم لا، ولكنه وجدهم في كل مرة نائمين، فكان يوقظهم ويرجع، ثم ينزل ليراهم، فيجدهم نائمين، وفي الأخير قال لهم ساخطا: "أَهكَذَا مَا قَدَرْتُمْ أَنْ تَسْهَرُوا مَعي سَاعَةً وَاحِدَةً؟" (متى ٢٦: ٤٠)، ومع ذلك لم يكن لقوله أي تأثير على تلاميذه.

أما الأدعية التي دعا بها المسيح عليه السلام بكرب واضطراب في تلك المناسبة، فقد ذكرها الإنجيل كالآتي: "حِينَئِذٍ جَاءَ مَعَهُمْ يَسُوعُ إِلى ضَيْعَةٍ يُقَالُ لَهَا جَثْسَيْمَانِي، فَقَالَ لِلتَّلاَمِيذِ: اجْلِسُوا ههُنَا حَتَّى أَمْضِيَ وَأُصَلِّيَ هُنَاكَ. ثُمَّ أَخَذَ مَعَهُ بُطْرُسَ وَابْنَيْ زَبْدِي، وَابْتَدَأَ يَحْزَنُ وَيَكْتَئِبُ، فَقَالَ لَهُمْ: نَفْسِي حَزِينَةٌ جدًّا حتى الموتِ. اُمْكُثُوا ههُنَا وَاسْهَرُوا مَعِي. ثُمَّ تَقَدَّمَ قَلِيلاً وَخَرَّ عَلَى وَجْهِهِ، وَكَانَ يُصَلِّي قَائِلاً: يَا أَبَتَاهُ، إِنْ أَمْكَنَ فَلْتَعْبُرْ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسُ، وَلكِنْ لَيْسَ كَمَا أُرِيدُ أَنَا بَلْ كَمَا تُرِيدُ أَنْتَ. ثُمَّ جَاءَ إِلى التَّلاَمِيذِ فَوَجَدَهُمْ نِيَامًا، فَقَالَ لِبُطْرُسَ: أَهكَذَا مَا قَدَرْتُمْ أَنْ تَسْهَرُوا معي سَاعَةً وَاحِدَةً؟ اِسْهَرُوا وَصَلُّوا لِئَلاَّ تَدْخُلُوا فِي تَجْرِبَةٍ. أَمَّا الرُّوحُ فَنَشِيطٌ وَأَمَّا الْجَسَدُ فَضَعِيفٌ. فَمَضَى أَيْضًا ثَانِيَةً وَصَلَّى قَائِلاً: يَا أَبَتَاهُ، إِنْ لَمْ يُمْكِنْ أَنْ تَعْبُرَ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسُ إِلا أَنْ أَشْرَبَهَا، فَلْتَكُنْ مَشِيئَتُكَ. ثُمَّ جَاءَ فَوَجَدَهُمْ أَيْضًا نِيَامًا، إِذْ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ ثَقِيلَةً. فَتَرَكَهُمْ وَمَضَى أَيْضًا وَصَلَّى ثَالِثَةً قَائِلاً ذلِكَ الْكَلاَمَ بِعَيْنِهِ. ثُمَّ جَاءَ إِلى تَلاَمِيذِهِ وَقَالَ لَهُمْ: نَامُوا الآنَ وَاسْتَرِيحُوا! هُوَذَا السَّاعَةُ قَدِ اقْتَرَبَتْ، وَابْنُ الإِنسان يُسَلَّمُ إِلى أَيْدِي الْخُطَاةِ". (مَتَّى ٢٦: ٣٦-٤٥)

فإذا كان المسيح عليه السلام قد جاء لحمل خطايا الناس ولفدائهم حقًا، فكيف يمكن أن يدعو الله تعالى قبل الصليب باكيا مبتهلا: "يَا أَبَتَاهُ، إِنْ أَمْكَنَ فَلْتَعْبُرْ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسُ". إنما كان عليه أن يدعو الله تعالى كل يوم أن يسقيه هذه الكأس سريعا ليكون فداء لذنوب الناس، ولكنه بدلاً من ذلك يبكي في الدعاء طوال الليل لينقذه من الصلب، وليس هذا فحسب، بل يوصي الحواريين مرارًا بالدعاء له، وكان يذهب إليهم مرة بعد أخرى ليرى ما إذا كانوا ساهرين يدعون له أم نائمين، ولما وجدهم متقاعسين عن الدعاء زجرهم قائلا: أَهكَذَا مَا قَدَرْتُمْ أَنْ تَسْهَرُوا معي سَاعَةً وَاحِدَةً لتدعوا الله تعالى! كلُّ هذا دليل على أن مسألة الفداء التي اخترعها النصارى لم تخطر ببال المسيح عليه السلام قط، وأنه لم يأت إلى الدنيا من أجل الكفارة، وإلا فما كان له أن يدعو الله تعالى ليلة الصلب أو يأمر الحواريين أن يدعو له لتعبر عنه هذه الكأس.

ثم نقول إن أساس الفداء إنما هو أن المسيح عليه السلام مات على الصليب، ولكن التدبر في الإنجيل يكشف أنه لم يمت على الصليب، حيث ورد أن المسيح عليه السلام لما قدّم للكتبة والفريسيين شتى الأدلة على صدقه قالوا: هذه مجرد أقوال ونحن نريد أن تُرينا آية لنقتنع بصدقك: "حِينَئِذٍ أَجَابَ قَوْمٌ مِنَ الْكَتَبَةِ وَالْفَرِّيسِيِّينَ قَائِلِينَ: يَا مُعَلِّمُ، نُرِيدُ أَنْ نَرَى مِنْكَ آيَةً. فَأَجابَ وَقَالَ لَهُمْ: جِيلٌ شِرِّيرٌ وَفَاسِقٌ يَطْلُبُ آيَةً، وَلا تُعْطَى لَهُ آيَةٌ إِلا آيَةَ يُونَانَ النَّبِيِّ، لأَنَّهُ كَمَا كَانَ يُونَانُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ وَثَلاَثَ لَيَالٍ، هكَذَا يَكُونُ ابْنُ الإنسان فِي قَلْبِ الأَرْضِ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ وَثَلاَثَ لَيَالٍ" (مَتَّى ١٢: ٣٨-٤٠).

وقد تنبأ المسيح عليه السلام هنا عن واقعة الصليب، وهو أمرٌ نتفق فيه مع النصارى حيث يقولون إن نبوءة المسيح هذه تنطبق على حادثة الصليب. وبعد هذا الاتحاد بين الفريقين حين نتدبر في النبوءة نفسها نجد فيها أخبارًا هامة، أوّلُها: أن المسيح عليه السلام يعلن أن اليهود لن يُعطَوْا آية إلا آية يونان النبي، وثانيها: كما أن يونان النبي ظل في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال، كذلك سيبقى ابن الإنسان في بطن الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال.

هذه الكلمات تؤكد بوجه خاص على مماثلة المسيح بيونس النبي في هذه الآية، وهذه المماثلة ليست في ثلاثة أيام، بل التركيز فيها على بقاء ابن الإنسان في الأرض كبقاء يونس في بطن الحوت.. أي أن ابن آدم سيبقى في بطن الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال، مثلما بقي يونس في بطن الحوت ثلاث ليال وثلاثة أيام. فهذه الكلمات تخبر بوضوح أن المسيح عليه السلام قدّم على صدقه آيةً صريحة حتمية بأنه كما دخل يونس في بطن الحوت وبقي فيه ثلاثة أيام وثلاث ليال، كذلك سيتعرض المسيح لحادث يضطرّه للبقاء في بطن الأرض ثلاث ليال وثلاثة أيام.

هلم نر الآن ما هي واقعة يونس عليه السلام؟

يتضح من التوراة أن الله تعالى أمر يونان النبي أن يذهب إلى أهل نينوى لينذرهم بعذاب الله، ولكنه هرب من هناك خوفًا من معارضة الناس، وركب السفينة قاصدًا منطقة أخرى. فجاء الطوفان، فظن الركاب أن الله تعالى قد غضب عليهم وأنزل

عليهم العذاب، فألقوا القرعة، فجاءت باسم يونان. فقالوا له: لقد خرج اسمك بالقرعة فما هي قصتك؟ فحكى لهم حكايته بأن الله تعالى قد أنزل إليه وحيه، ولكنه خاف أن لو أنذرهم بالعذاب فسوف يعارضونه ففر منهم وركب السفينة. فقال له الركاب: فأخبرْنا الآن ما السبيل للخروج من هذه المصيبة؟ قال: ألقُوني في البحر وسيزول عنكم هذا العذاب. ولكنهم لم يرضوا بذلك في البداية، وسعوا جاهدين ليخرجوا السفينة من الطوفان بسلام، ولكن دون جدوى إذ لم يهدأ الطوفان. فدعوا الله تعالى ألا يجعل إلقاء هذا الإنسان في البحر عذابًا لهم، ثم ألقوه في البحر.

ثم تقول التوراة: "وَأَمَّا الرَّبُّ فَأَعَدَّ حُوتًا عَظِيمًا لِيَبْتَلِعَ يُونَانَ. فَكَانَ يُونَانُ فِي جَوْفِ الْحُوتِ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ وَثَلاَثَ لَيَال" (يُونَان ١: ١٧).

أما كيفية بقاء يونان في بطن الحوت، فقد ورد أنه لما ابتلعه الحوت: "فَصَلَّى يُونَانُ إِلَى الرَّبِّ إِلهِهِ مِنْ جَوْفِ الْحُوتِ، وَقَالَ: دَعَوْتُ مِنْ ضِيقِي الرَّبَّ، فَاسْتَجَابَنِي". (يُونَان ٢: ١-٢).

هذا الدعاء الذي دعا به يونان من جوف الحوت دليل على أنه دخل في بطنه حيًا، ومكث فيه حيًا، وظل يدعو الله تعالى كثيرا، حيث ورد في سفر يونان – الإصحاح ٢– دعاءٌ طويل له في بطن الحوت، وقال رب قد نجّيتَني من بلايا كثيرة، فنَجِّني من هذه المصيبة، فاستجاب الله دعاءه: "وَأَمَرَ الرَّبُّ الْحُوتَ، فَقَذَفَ يُونَانَ إِلَى الْبَرِّ." (يُونَان ٢: ١٠).

لقد تبين من هنا أن معجزة يونان النبي هي أنه ظل في بطن الحوت ثلاث ليال وثلاثة أيام حيًا، وليس أنه عاد إلى الحياة بعد أن مات فيه. أعني أن التوراة لا تقول أن يونان كان نبيا صادقا لأنه عاد إلى الحياة بعد أن مات، إنما تقول إن معجزته أنه دخل في بطن الحوت حيا ومكث فيه حيًا. كان هناك خطر أن يحاول الحوت مضغه، ولو مضغه لما بقي حيًّا، ولكن الله تعالى جعله يبلعه من دون أن يمضغه. ثم كان هناك خطر أن يموت في جوفه بعد أن دخل فيه حيًا، ولكن الله تعالى قد هيّأ له في بطن الحوت ذخيرة من الهواء فظلّ فيه حيًّا ثلاثة أيام وثلاث ليال. ثم كان هناك

خطر أن يضغط عليه الحوت حين إلقائه إياه خارج بطنه، ولكن الله تعالى حفظه في هذه المرحلة أيضًا، فلم يمضغه الحوت عند ابتلاعه، ولا عند إلقائه، و لم تقلّ ذخيرة الهواء له في بطن الحوت.

إذن، فما هي معجزة النبي يونان؟ لم تكن معجزته أنه عاد إلى الحياة بعد الموت، إنما معجزته أنه نجا من الموت المحقق وظل حيًّا في هذه المراحل الثلاث، وهذه هي الآية العظيمة على صدقه. فإذا كان المسيح عليه السلام يريد أن يُري قومه آيةً كآية يونان فكان عليه أن يدخل في القبر حيًا مثل يونان، ويبقى فيه حيًا، ويخرج منه حيًا. كان صدقه منوطًا بأن يُحفَظ من الموت في المراحل الثلاث، وهذه هي الآية التي أعلن المسيح أنه سيُري اليهودَ إياها متحديًا لهم أن الأمر الذي يدخل بسببه القبرَ يؤدي إلى الموت دائمًا، ولكنه لن يؤدي إلى موته هو، ثم إن البقاء في القبر يسبب الموت للناس، ولكنه لن يموت في القبر، بل كما أن يونان نجا من الموت رغم بقائه في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال، كذلك سينجو هو من الموت رغم بقائه في القبر ثلاثة أيام وثلاث ليال. والأمر الثالث أنه سيخرج من القبر حيًا، مع أن المجرم الذي تأمر الحكومة بإعدامه إذا فرّ عرّض نفسه لخطر كبير، إذ يمكن أن تلقي الحكومة القبض عليه مرة أخرى، ولكنه عليه السلام يعلن إن الحوت كما ألقى يونان خارج البحر حيا كذلك سأخرج من القبر حيا. كان هناك خطر أن يقتله الحوت وهو يلقيه خارج بطنه، ولكن الله تعالى حفظه فخرج من بطنه بسلام، كذلك هناك خطر إلقاء الحكومة القبض عليه، ولكن الله سينجيه من هذا الخطر حيًا ولن يستطيع أحد القبض عليه وقتله، تمامًا كما هيّأ الله تعالى الأسباب لنجاة يونان النبي. ليس خافيًا أنّ طريق دخول المسيح عليه السلام في القبر هو تعليقه على الصليب، فإذا كانت نبوءته هذه صحيحة فليس معناها إلا أن نقول إنه قد تنبأ أنه سينجو من الموت رغم تعليقه على الصليب الذي يسبب الموت للناس، فكأنه قال: كما أن الحوت لم يقتل يونان بل ابتلعه حيًا، كذلك لن يقتلني الصليب، بل يُدخِلني في القبر حيًا.

وكان القبر الذريعة الثانية للموت في هذا الحادث، فتنبأ المسيح عليه السلام أنه كما بقي يونان النبي في بطن الحوت حيًا كذلك سأظل حيا في بطن الأرض. ثم تنبأ النبوءة الثالثة بأنه كما خرج يونان النبي من بطن الحوت حيا، وحفظه الله من الموت في هذه المرحلة الأخيرة، كذلك سأخرج من بطن الأرض حيا، ولن يقدر أحد أن يقبض عليّ ويقتلني.

إننا لسنا هنا بصدد موضوع وفاة المسيح عليه السلام حتى ندخل في التفاصيل، غير أني أقول إن المسيح عليه السلام لم يعلَّق على الصليب أكثر من ساعتين أو ثلاث، وذلك بحسب الروايات المسيحية، فالثابت من الإنجيل أنه عليه السلام ظل معلقًا على الصليب من الساعة السادسة حتى التاسعة (متى ٢٧: ٤٥-٥٤). وهذا التقدير ليس سليما في رأيي، إذ ورد أن عاصفة شديدة هبّت بعد تعليقه على الصليب، فخيّم الظلام على كل مكان، وبسبب هذه الظلمة والعاصفة لم يكن بوسع الناس أن يعرفوا مدة بقاء المسيح على الصليب بالتحديد، فذكروا هذا التوقيت على سبيل التخمين فقط. وحتى لو سلّمنا جدلاً بتقديرهم هذا فليست هذه المدة أكثر من ثلاث ساعات، ولم يكن المعلق على الصليب يموت في سبعة أيام، دَعْك في ثلاث ساعات.

علمًا أن الناس في بلادنا يظنون أن عملية الصلب عبارة عن دق المسامير في عظام الصدر والأرجل والأيدي، مما يؤدي إلى الموت الفوري، مع أن الواقع ليس كذلك. إن شكل الصليب الذي كان المرء يُعلَّق عليه هو كالآتي:

فإذا أرادوا صلب إنسان أقاموه وربطوا يديه بخشبة ودقّوا المسامير في نُسُج يديه الرخوة وكذلك في نسج قدميه الرخوة وليس في عظام رجليه. يظن الناس عادةً أن المسامير كانت تُدَقّ في عظام الأيدي والأرجل والصدر مما يؤدي إلى موت المصلوب بسرعة. لا شك أن دقّ المسامير في العظام هكذا خطير وبقاء الإنسان بعده حيًا فترة طويلة مستحيل، ولكنهم لم يكونوا يدقّون المسامير في العظام، بل في

النسج الرخوة لليدين والقدمين. لا شك أنها عملية مؤلمة، ولكنها لم تكن تؤدي إلى موت المصلوب فورا، بل الواقع أن الأقوياء ما كانوا يموتون على الصليب لسبعة أيام أحيانا، ومَن مات منهم مات لشدة الجوع والعطش أو لتقرُّح الجروح والتهابها وتسمُّم الجسم بها. أما قطاع الطرق والمتمردون وغيرهم فكانوا يظلون أحياء حتى اليوم السابع، فكانوا يكسرون عظامهم أو يدقونها بالمطارق ليموتوا. والحق أن لفظ الصليب يعني أصلاً إخراج وَدَقِ العظم وكسْرها. وقد أُطلقت هذه التسمية على هذه العملية لأن معظم الناس لم يكونوا يموتون على الصليب، بل كانت عظامهم تُكسَر حتى يخرج وَدَقُها ليموتوا. وهذه الكلمة في حد ذاتها تبطل الظنّ أنّ المصلوب كان يموت فورا.

ثم هناك أمور غير عادية حصلت عند حادثة الصليب وهي:

أوّلاً: عندما رُفعت القضية ضد المسيح عليه السلام رأت زوجة بيلاطس -الذي رُفعت إليه القضية- رؤيا منذرة، فبعثت إليه: "إِيَّاكَ وَذلِكَ الْبَارَّ، لأَنِّي تَأَلَّمْتُ الْيَوْمَ كَثِيرًا فِي حُلْمٍ مِنْ أَجْلِهِ" (مَتَّى ٢٧: ١٩). فحاول بيلاطس كثيرًا إطلاق سراح المسيح، ولكن اليهود أصروا على معاقبته. ولما كان المسيح عليه السلام متهمًا بالخروج على الحكومة فهدّد اليهود بيلاطسَ أنه إذا أطلق سراحه فسيتهمونه بالتمرد على الحكومة، فعندما لم يجد أمام ضغطهم الشديد مناصًا "أَخَذَ مَاءً وَغَسَلَ يَدَيْهِ قُدَّامَ الْجَمْعِ قَائِلاً: إِنِّي بَرِيءٌ مِنْ دَمِ هذَا الْبَارِّ! أَبْصِرُوا أَنْتُمْ!. فَأَجَابَ جَمِيعُ الشَّعْبِ وَقَالُوا: دَمُهُ عَلَيْنَا وَعَلَى أَوْلاَدِنَا" (مَتَّى ٢٧: ٢٤-٢٥).

ثانيًا: أمر بيلاطس بصلب المسيح عليه السلام في وقت متأخر من يوم الجمعة حيث يبدأ بعده يوم السبت (مرقس ١٥: ٤٢). لقد بينتُ مِن قبل أن المعلق على الصليب لم يكن يموت في يوم أو يومين. لا شك أنه كان يعاني كثيرا من جروحه، ولكن هذا لم يكن يتسبب في موته، وكان بعضهم يظل حيًا حتى ثلاثة أيام أو سبعة، فكانوا يقتلونهم بكسر عظامهم بعد إنزالهم عن الصليب. نرى أن بعض الصعاليك وقطاع الطرق تُكسر جماجمهم، مع ذلك لا يموتون رغم عدم خضوعهم للعلاج لخمسة أو سبعة أيام. فما كان المسيح عليه السلام ليموت على الصليب الا إذا ظل معلقا

عليه لسبعة أيام، ثم تكسر عظامه بعد ذلك، ولكن بيلاطس كان ناصحًا له في الخفاء، فاختار لصلبه وقتًا يبدأ بعده بقليل يومُ السبت، إذ كان اليهود يعتقدون أن المصلوب لو ظل معلقا على الصليب يوم السبت نزلت اللعنة بالقوم كلهم (التثنية ٢١: ٢٢-٢٣). فلما رأى بيلاطس إصرار اليهود على صلب المسيح عليه السلام أمر بصلبه، وعلّقه يوم الجمعة قريبا من الظهر، بل بعد الظهر، ثم هبّت عاصفة شديدة وقت العصر، فأظلمت الجوّ كله، فقال اليهود فيما بينهم إنه لو حل المساء في هذه الظلمة وبدأ السبت بحلوله والمسيحُ معلق على الصليب و لم نعلم بذلك لنزلت اللعنة علينا جميعًا، فالأفضل أن ننزله عن الصليب بسرعة حتى لا يحل المساء.

وقد يقال هنا: لماذا لم يعارض اليهود صلب المسيح يوم الجمعة؟ ولماذا لم يقترحوا يوما آخر؟ والجواب أولاً: كان موقف اليهود ضعيفا، فلو عارضوا صلب المسيح عليه السلام يوم الجمعة لقال لهم بيلاطس: إنكم تتهمونه بالخروج على الحكومة، فلو هرب في هذه الفترة أو أنقذه أتباعه عنوةً فمن ذا الذي يتحمل المسؤولية؟ الأمر الذي ما كان عند اليهود جوابه.

وثانيًا: كانت العادة أنه إذا لم يمت المصلوب على الصليب قُتِلَ بكسر عظامه، فلذلك اطمأن اليهود بصلب المسيح عليه السلام يوم الجمعة ظنًا منهم أنه إذا لم يمت على الصليب كسروا عظامه، فيجب أن لا يعترضوا على صلبه يوم الجمعة، لأنهم قد اتهموه بالتمرّد على الحكومة، ولو طالبوا بيلاطس بتأجيل عقابه سيقول لهم: يجب قتل المتمرد على الحكومة فورًا، فلماذا تريدون تأجيل صلبه ليوم أو يومين؟

باختصار، لم يعترض اليهود على موعد الصلب، فعُلّق المسيح عليه السلام بعد ظهر يوم الجمعة، فعيّن بيلاطسُ -الناصحُ للمسيح سرًّا والخائفُ بسبب رؤيا زوجته- على عملية صلب المسيح فرقةً من الجنود على رأسها أحدُ أتباع المسيح. كما كان بين الحرس ورجال الشرطة الحاضرين أتباعٌ للمسيح عليه السلام، والدليل على ذلك أنه عليه السلام لما صرخ من شدة الآلام تقدم أحد الحرس بسرعة وأخذ إسفنجة وملأها خمرًا ومُرًّا وقدّمه للمسيح ليمتصّه.

وجدير بالذكر هنا أن الشيعة كما يبالغون في تصوير آلام حادث كربلاء للناس في خطبهم، كذلك عندما يتحدث القُسس عن واقعة الصليب يقولون في بعض الأحيان –قصدًا منهم أو جهلا– كم كان هؤلاء شديدي العداء لابن الله! فعندما كان يصرخ من شدة الآلام تقدّم أحد الأشقياء الظالمين منهم ووضع في فم المسيح إسفنجةً مملوءة خمرًا وخَلاًّ، مما زاد من معاناته في آخر وقته. مع أن التاريخ يبين لنا أن القوم إذا أرادوا العطف على المصلوب وتخفيف معاناته سقَوْه مزيجًا من الخمر والمُرّ (الموسوعة اليهودية المجلد ٤: تحت كلمة: Crucifixion). لا شك أن الأناجيل الحالية لا تذكر الخمر ولا المرّ، بل تقول إنه لما صرخ من شدة آلامه "رَكَضَ وَاحِدٌ وَمَلأَ إِسْفِنْجَةً خَلاًّ وَجَعَلَهَا عَلَى قَصَبَةٍ وَسَقَاهُ" (مَرْقُسَ ١٥: ٣٦)، ولكنا نقول: لم يكن تقديم الإسفنجة المليئة بالخل للمصلوب من عادات ذلك الزمن، فلماذا كان الخل والإسفنجة هنالك؟ هل كان الناس يأخذون الخل والإسفنجة معهم بلا سبب؟ وهل كان الخل والإسفنجة تتيسر حالاً إذا طلبهما أحد في مجلس؟ الحق أن هذه الرواية قد نُسجت قصدًا أو جهلا بالحقيقة، إذ الواقع أن الناس في ذلك الزمن كانوا يقدّمون للجريح مزيج الخمر والمرّ لتخفيف آلامه، وكان أتباع المسيح عليه السلام قد أحضروهما معهم، فلما صرخ من شدة آلامه سارع أحدهم وسقاه إسفنجة مليئة بمزيج الخمر والمر. وفيما يلي العبارة الأصلية من الموسوعة اليهودية المجلد ٤ تحت كلمة "الصليب":

The details given in the New Testament accounts (Matt. xxvii. and parallels) of the crucifixion of Jesus agree on the whole with the procedure in vogue under Roman law. Two modifications are worthy of note: (1) In order to make him insensible to pain, a drink (Matt. xxvii. 34, 48; John xix. 29) was given him. This was in accordance with the humane Jewish provision (see Maimonides, "Yad," Sanh. xiii. 2; Sanh. 43a). The beverage was a mixture of myrrh and wine, given "so that the delinquent might lose clear consciousness through the ensuing intoxication."

(الموسوعة اليهودية المجلد ٤ ص ٣٧٣ تحت كلمة: Crucifixion).

أي أن تفصيل حادث صلب المسيح الذي ذكره الإنجيل يبدو مطابقًا على العموم للقانون الروماني الرائج حينها. وهناك فَرْقان جديران بالانتباه، أوّلُهما: أن يسوع المسيح سُقِيَ دواءً للتخفيف من آلامه، وكان ذلك بحسب قانون يهودي إذا أُريدَ العطف على المصلوب. وثانيهما: هذا الدواء كان مزيجًا من المُرّ والخمر، وكان يُسقاه المجرم كيلا يحسّ بآلامه نتيجة السكر.

إذن، فرغم أن الإنجيل يذكر أن إسفنجة مليئة خَلاًّ قُدّمت للمسيح عليه السلام ليمتصّها، إلا أن الواقع أنه لم يكن بها خَلٌّ، بل دواء مركب من الخمر والمرّ، وكان يُقدَّم للمصلوب تخفيفًا من آلامه. وقد قدّم أحد الحرس هذا المزيجَ للمسيح، مما يدل على أن الحرس الذين عيّنهم بيلاطس في تلك المناسبة كانوا من أتباع المسيح، فأرادوا تخفيف آلامه قدر المستطاع. كما أن تعليق بيلاطس المسيحَ في آخر جزء من نهار الجمعة دليلٌ ساطع على أنه أراد نجاة المسيح من الموت على الصليب، فأمر بتعليقه في آخر يوم الجمعة قريبًا من بداية يوم السبت لكي يبقى على الصليب أقلَّ ما يمكن، فينجو من الهلاك. وقد ذكرت الموسوعة اليهودية هذا الأمر قائلة: إن ما فعله بيلاطس أمرٌ غير عادي ومخالف للقواعد، حيث ورد:

The greatest difficulty from the point of view of the Jewish penal procedure is presented by the day and time of the execution. According to the Gospels, Jesus died on Friday, the eve of Sabbath. Yet on that day, in view of the approach of the Sabbath (or holiday), executions lasting until late in the afternoon were almost impossible (Sifre, ii. 221; Sanh. 35b; Mekilta to Wayakhel).

(الموسوعة اليهودية المجلد ٤ ص ٣٧٤ تحت كلمة: Crucifixion).

أي أن أكبر مشكلة تواجهنا بالنسبة لقانون التعزير اليهودي هي تحديد ذلك اليوم والوقت لتعليق يسوع المسيح على الصليب. لقد مات المسيح يوم الجمعة قبل مساء السبت بحسب الإنجيل، مع أنه لا يمكن أن يُعَلَّق أحد على الصليب في ذلك اليوم بحسب القانون اليهودي، لأن من المحال -تقريبًا- أن يتم تعليق المجرم لوقتٍ كافٍ بعد الظهر بسبب قرب يوم السبت.

وهذا يعني أن صاحب الموسوعة اليهودية يرى أن تعليق المسيح عليه السلام يوم الجمعة أمر غريب حقًا، وليس هذا فحسب، بل يقول إن المسيح لم يبقَ معلقًا على الصليب لوقت كافٍ أصلاً. فإذا كان الإنجيل يقول إن المسيح ظل معلقًا على الصليب ثلاث ساعات، فإن من حقنا القول إنه لم يُعلَّق إلا ما بين ساعة ونصف وساعتين، إذ إن تعليق أحد على الصليب إلى وقت طويل كان محالاً بسبب قرب السبت.

حتى ولو كان المسيح عليه السلام قد ظل على الصليب ساعتين أو ثلاث فلا يمكن أن يموت في هذه المدة؛ إذ كان الناس يظلّون أحياءً على الصليب حتى سبعة أيام، ثم تكسر عظامهم بالمطارق ليخرج وَدَقُها ويموتوا.

ومن الأدلة على أن بيلاطس كان قد عيّن بعض الجنود المؤمنين بالمسيح وقت عملية الصليب إنقاذًا له من الموت ما ورد في الإنجيل أن المسيح لما عُلِّق على الصليب "كَانَ الْمُجْتَازُونَ يُجَدِّفُونَ عَلَيْهِ، وَهُمْ يَهُزُّونَ رُؤُوسَهُمْ قَائِلِينَ: "آهِ يَا نَاقِضَ الْهَيْكَلِ وَبَانِيَهُ فِي ثَلاثَةِ أَيَّامٍ! خَلِّصْ نَفْسَكَ وَانْزِلْ عَنِ الصَّلِيبِ! وَكَذلِكَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَهُمْ مُسْتَهْزِئُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ مَعَ الْكَتَبَةِ، قَالُوا: خَلَّصَ آخَرِينَ وَأَمَّا نَفْسُهُ فَمَا يَقْدِرُ أَنْ يُخَلِّصَهَا! لِيَنْزِلِ الآنَ الْمَسِيحُ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ عَنِ الصَّلِيبِ، لِنَرَى وَنُؤْمِنَ! وَاللَّذَانِ صُلِبَا مَعَهُ كَانَا يُعَيِّرَانِهِ". (مَرْقُسَ ١٥: ٢٩-٣٢). وفي هذه الأثناء صرخ المسيح من شدة آلامه ومات بحسب الإنجيل الذي يصور هذا المشهد قائلا: "وَلَمَّا رَأَى قَائِدُ الْمِئَةِ الْوَاقِفُ مُقَابِلَهُ أَنَّهُ صَرَخَ هكَذَا وَأَسْلَمَ الرُّوحَ، قَالَ: لا، حَقًّا كَانَ هذَا الإنسان ابْنَ اللهِ!" (مَرْقُسَ ١٥: ٣٩).

فهل يمكن أن تخرج هذه الكلمات الأخيرة مِن فم شخص عدو للمسيح؟ لو كان قائد المئة يعتبر المسيح كاذبًا مثل الكتبة والفريسيين فكان ينبغي أن يقول: انظروا، ها قد ثبت أن هذا الشخص لم يكن ابن الله، فقد صلبناه وقتلناه. ولكنه لم يقل ذلك و لم يسخر منه و لم يكذّب دعواه، بل قال: "حَقًّا كَانَ هذَا الإنسان ابْنَ اللهِ". إذن، فهذا دليل ساطع على أن بيلاطس كان قد عيّن على عملية الصليب

بعض الجنود والمسؤولين المؤمنين بالمسيح قصدًا ليخفّفوا من معاناته قدر المستطاع، ويشاركوا في حمايته وعلاجه بعد الصليب.

على أية حال، لقد أغميَ على المسيح -كونه مرهَفَ الحس ضعيف البدن- وهو معلق على الصليب، وفي هذه الأثناء هبّت العاصفة، فأنزلوه مخافة أن يحلّ السبت، فلما أُنزلَ هو واللصان المعلقان معه كُسرتْ عظامهما حسب القانون (يوحنا ١٩: ٣٢)، ولكن قائد المائة الذي كان من أتباع المسيح -كما هو ظاهر من مرقس ١٥: ٣٩، ومتى ٢٧: ٥٤- احتال وقال إن المسيح قد مات، فلا داعيَ لكسر عظامه، مع أن الإنجيل يذكر صراحةً أن "وَاحِدًا مِنَ الْعَسْكَرِ طَعَنَ جَنْبَهُ بِحَرْبَةٍ، وَلِلْوَقْتِ خَرَجَ دَمٌ وَمَاءٌ" (يُوحَنَّا ١٩: ٣٤)، وخروج الدم والماء دليل على أن المسيح عليه السلام كان حيًّا حينها، ولو كان ميتًا لتجلّط دمه، فخروج الدم والماء يؤكد أنه خرج من جسمه دم سائل في الواقع، ولكنه كان مغشيا عليه، فاحتال ذلك الجندي على الناس وقال لهم إنه قد مات.

وبعد ذلك فورًا ذهب يوسف الرامي -وهو أحد أتباع المسيح عليه السلام- إلى بيلاطس وطلب منه أن يسلّم له جثة المسيح، فأمر بيلاطس بتسليمها له (متى ٢٧: ٥٨). فوضع يوسف جثة المسيح عليه السلام في قبر كان عبارةً عن غرفة صغيرة منحوتة في الصخر لا في الأرض، ثم دحرجَ على باب القبر حجرًا لكي لا يدخل فيه إلا الهواء، حيث ورد: "فَأَخَذَ يُوسُفُ الْجَسَدَ وَلَفَّهُ بِكَتَّانٍ نَقِيٍّ، وَوَضَعَهُ فِي قَبْرِهِ الْجَدِيدِ الَّذِي كَانَ قَدْ نَحَتَهُ فِي الصَّخْرَةِ، ثُمَّ دَحْرَجَ حَجَرًا كَبِيرًا عَلَى بَابِ الْقَبْرِ وَمَضَى". (مَتَّى ٢٧: ٥٩-٦٠)

لقد نبّه صاحب الموسوعة اليهودية إلى هذا الأمر خاصة فقال:

Bodies of delinquents were not buried in private graves (Sanh. vi. 5), while that of Jesus was buried in a sepulcher belonging to Joseph of Arimathea.

(الموسوعة اليهودية المجلد ٤ ص ٣٧٣ تحت كلمة: Crucifixion).

أي أن جثث المجرمين ما كانت تُدفَن في قبور خاصة، لكن المسيح قد عومل هذه المعاملة المميزة حيث وضعت جثته في غرفة واسعة يملكها يوسف الرامي.

فارتاب اليهود في الأمر واشتكوا إلى بيلاطس وطالبوه بحراسة القبر ثلاثة أيام، حيث ورد: "وفِي الْغَدِ الَّذِي بَعْدَ الاسْتِعْدَادِ اجْتَمَعَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْفَرِّيسِيُّونَ إِلَى بِيلاَطُسَ قَائِلِينَ: يَا سَيِّدُ، قَدْ تَذَكَّرْنَا أَنَّ ذلِكَ الْمُضِلَّ قَالَ وَهُوَ حَيٌّ: إِنِّي بَعْدَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ أَقُومُ، فَمُرْ بِضَبْطِ الْقَبْرِ إِلَى الْيَوْمِ الثَّالِثِ" (مَتَّى ٢٧: ٦٢-٦٤). مما يبين بجلاء أن نبوءة المسيح عليه السلام التي قال فيها إن اليهود لن يُعطَوْا آية إلا آية يونان النبي كانت شهيرة بين الناس على نطاق واسع، وكان الحواريون يتحدثون عنها مع الجميع قائلين: كما أن يونس (يونان) خرج من بطن الحوت حيًا بعد ثلاثة أيام وثلاث ليال كذلك سيحيا المسيح بعد ثلاثة أيام وثلاث ليال، ولذلك فكّر اليهود أنه بعد ثلاثة أيام وثلاث ليال سيقول الحواريون إن المسيح قد عاد إلى الحياة، فالأفضل أن يطالبوا بيلاطس بحراسة الغرفة التي وُضع فيها جسد المسيح لكي لا يتحقق قوله إنه خرج من القبر حيًا بعد ثلاثة أيام وثلاث ليال كما خرج يونس من بطن الحوت حيًا، ولكن بيلاطس المتعاطف مع المسيح رفض طلبهم، وقال لا أقدر على تعيين حرس من قبل الحكومة، "عِنْدَكُمْ حُرَّاسٌ، اِذْهَبُوا وَاضْبُطُوهُ كَمَا تَعْلَمُونَ" (مَتَّى ٢٧: ٦٥). وقد رفض بيلاطس طلبهم لأنه لو عيّن على القبر حرسًا حكوميين فلن يستطيع المسيح الهروب منه، ولو حاول أتباعه قتال الحرس فيُعتبر عملهم تمردًا على الحكومة، مما يعرّض المسيح للمزيد من المشاكل، أما إذا كان الحراس من العوام فلا بأس أن يقاتلهم أتباعُه ويهرّبوا المسيح من هنالك. هذه هي الحكمة وراء رفضه تعيين حرس حكوميين.

وعند طلوع الصبح يوم الأحد ذهبتْ نسوة إلى قبره فلم يجدن المسيح فيه، ووجدن ملاكًا على صخرة، حيث ورد: "وَبَعْدَ السَّبْتِ، عِنْدَ فَجْرِ أَوَّلِ الأُسْبُوعِ، جَاءَتْ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ وَمَرْيَمُ الأُخْرَى لِتَنْظُرَا الْقَبْرَ، وَإِذَا زَلْزَلَةٌ عَظِيمَةٌ حَدَثَتْ، لأَنَّ مَلاَكَ الرَّبِّ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ وَجَاءَ وَدَحْرَجَ الْحَجَرَ عَنِ الْبَابِ، وَجَلَسَ عَلَيْهِ. وَكَانَ مَنْظَرُهُ كَالْبَرْقِ، وَلِبَاسُهُ أَبْيَضَ كَالثَّلْجِ." (مَتَّى ٢٨: ١-٣).

وعندي أن هذا الملاك لم يكن سوى المسيح الذي خرج من القبر وجلس على الصخرة لابسًا كفنه.

ثم يقول الإنجيل إن الملاك قال للنسوة إن المسيح الذي تبحثن عنه ليس هنا، بل قد ذهب إلى الجليل عند أتباعه، فاذهَبْن وأَخبِرْن الحواريين بذلك، حيث ورد: "فَأَجَابَ الْمَلاَكُ وَقَالَ لِلْمَرْأَتَيْنِ: لا تَخَافَا أَنْتُمَا، فَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكُمَا تَطْلُبَانِ يَسُوعَ الْمَصْلُوبَ. لَيْسَ هُوَ ههُنَا لأَنَّهُ قَامَ كَمَا قَالَ! هَلُمَّا انْظُرَا الْمَوْضِعَ الَّذِي كَانَ الرَّبُّ مُضْطَجِعًا فِيهِ. وَاذْهَبَا سَرِيعًا قُولا لِتَلاَمِيذِهِ: إِنَّهُ قَدْ قَامَ مِنَ الأَمْوَاتِ، هَا هُوَ يَسْبِقُكُمْ إِلَى الْجَلِيلِ، هُنَاكَ تَرَوْنَهُ. هَا أَنَا قَدْ قُلْتُ لَكُمَا." (مَتَّى ٢٨: ٥-٨).

وقد ورد أيضا أنه كان المشهور بين اليهود أن الحرس أخذوا الرشوة من أتباع المسيح وأشاعوا بين القوم أنه عاد إلى الحياة وذهب. (متى ٢٨: ١١-١٥). مما يبين أن الحرس أخبروا الناس أن أتباع المسيح قاوموهم وأخذوه من القبر قسرًا، ولكن اليهود كانوا يريدون أن يثبتوا للناس أنه صار ملعونا بموته على الصليب، فأشاعوا بين القوم أن الحرس يكذبون في قولهم أن المسيح عاد إلى الحياة وذهب، فإنهم يقولون ذلك لأنهم أخذوا الرشوة من أتباعه.

ثم ورد أن المسيح عليه السلام ظهر للحواريين وقال لهم: "انْظُرُوا يَدَيَّ وَرِجْلَيَّ: إِنِّي أَنَا هُوَ! جُسُّونِي وَانْظُرُوا، فَإِنَّ الرُّوحَ لَيْسَ لَهُ لَحْمٌ وَعِظَامٌ كَمَا تَرَوْنَ لِي. وَحِينَ قَالَ هذَا أَرَاهُمْ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ. وَبَيْنَمَا هُمْ غَيْرُ مُصَدِّقِينَ مِنَ الْفَرَحِ، وَمُتَعَجِّبُونَ، قَالَ لَهُمْ: أَعِنْدَكُمْ ههُنَا طَعَامٌ؟ فَنَاوَلُوهُ جُزْءًا مِنْ سَمَكٍ مَشْوِيٍّ، وَشَيْئًا مِنْ شَهْدِ عَسَل، فَأَخَذَ وَأَكَلَ قُدَّامَهُمْ". (لُوقَا ٢٤: ٣٩-٤٣). وورد في يوحنا أن توما الحواري لما سمع أن المسيح قد نجا من الصلب لم يصدّق وقال: "إِنْ لَمْ أُبْصِرْ فِي يَدَيْهِ أَثَرَ الْمَسَامِيرِ، وَأَضَعْ إِصْبِعِي فِي أَثَرِ الْمَسَامِيرِ، وَأَضَعْ يَدِي فِي جَنْبِهِ، لا أُؤْمِنْ".(يُوحَنَّا ٢٠: ٢٥). فقال المسيح عليه السلام لتوما: "هَاتِ إِصْبَعَكَ إِلَى هُنَا وَأَبْصِرْ يَدَيَّ، وَهَاتِ يَدَكَ وَضَعْهَا فِي جَنْبِي، وَلا تَكُنْ غَيْرَ مُؤْمِنٍ بَلْ مُؤْمِنًا". (يُوحَنَّا ٢٠: ٢٧).

إن هذه الأدلة كلها تبيّن أن الظن بأن المسيح عليه السلام مات على الصليب ظن باطل لا أساس له. لا شك أنه قد عُلّق على الصليب، لكن الله تعالى نجّاه من الموت عليه، وهكذا ظهرت تلك الآية التي كان قد أعلن عنها المسيح عليه السلام سلفًا بأنه كما

دخل يونان النبي في بطن الحوت حيًّا، وظل فيه حيًّا، وخرج منه حيًّا، كذلك سأنزل مِن على الصليب حيًّا، وأدخل في القبر حيًّا، وأخرج منه حيًّا.

ومما يبطل عقيدة الفداء أن المسيح عليه السلام لما نجا من الموت على الصليب لم يزل يتخفى مخافة أن يقبض عليه العدو ثانية، مع أنه لو كان ابن الله حقًا، أو لو كانت روح المسيح ظهرت للحواريين بعد حادث الصليب، فما كانت هذه الروح بحاجة إلى التخفي، بل كان عليها أن تظهر للجميع وتتحداهم أن تعالوا واقتلوني إن كنتم قادرين. ولكن الإنجيل يخبر أن المسيح عليه السلام كان يتوارى عن الأنظار دائمًا بعد حادث الصلب. (لوقا ٢٤: ٣١)

إذن، فعقيدة المسيحيين أن المسيح صار فداء لذنوب الناس باطلة من أولها إلى آخرها.

والنظرية الجبرية الثالثة عن خلق الإنسان تقول إنه لم يُخلَق بمَلَكَةٍ معينة، بل الواقع أنه يتأثر بالتعليم والتربية، فيُصاغ بحسبها، وكأنه مجبر بظروفه. هذه نظرية فرويد وغيره من فلاسفة الغرب. إنهم يرون أن الإنسان يماثل الحيوانات الأخرى فيما يتعلق بولادته، فلا يولَد بقوة الخير ولا بقوة الشر. إنما يتأثر بمحيطه بعد ولادته، فإن كان المحيط خيرًا صار صالحا، وإن كان المحيط سيئا صار سيئا، وفي كل حال لا يتحلى بالخير أو الشر إلا مجبرا بظروفه.

ونحن نقول إنهم إذا كانوا يعنون بذلك أن كل مولود يولد بفطرة سليمة بدون أي آثار للإثم، لكن محيطه وظروفه تؤثّر عليه بعد الولادة فيصبح سيئا وفاسدا، فهذه هي العقيدة الإسلامية أيضا، وهذا ما يؤكده القرآن والحديث، حيث يقول الرسول ﷺ: "ما من مولود يولد إلا على فطرة الإسلام حتى يُعرب، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه". (معجم الطبراني الكبير، باب الألف، الأسود بن سريع المجاشعي)

ولكن السؤال هنا: هل يمكن إصلاح هذا الإنسان أم لا؟ إذا كان إصلاحه محالاً فقد بطل قول الله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، وإذا كان إصلاحه

ممكنًا فمهما فسد الإنسان بتأثير محيطه فلا يمكن القول إنه يولد بدون أي مَلَكَةٍ للخير.

عندما ندرس هذه النظرية من هذا المنظور يتضح لنا أن فرويد وغيره من الفلاسفة أنفسهم يعترفون بإمكانية إصلاح الإنسان، فهناك علم خاص يدعى التحليل النفسي (psychoanalysis)، حيث يدّعي علماؤه أنهم يعالجون به المرضى ذوي الأفكار الفاسدة.

الواقع أن نظرية فرويد تقول إن فساد فطرة الإنسان لا يبدأ عند ارتكابه أي سيئة، بل إن فسادها يبدأ منذ ولادته، وأن مختلف حركاته وتصرفاته تُولِّد في قلبه مشاعر صحيحة أو خاطئة. فيقول فرويد عن الشهوة –مثلاً– أنها تبدأ في النشوء في الإنسان حين يمتص الوليد ثدي أمه ويحتكّ جسمه بجسمها حيث يشعر بمتعة، فتنشأ فيه بدايات الشهوة. ثم إن أمه عندما تلمس أعضاءه الجنسية لتغسلها بعد تبوّله وتبرّزه فإن هذا اللمس يزيد في قلبه الإحساس بأفكار شهوانية. ففرويد يرى أن الشهوة لا تتولد عند الطفل حين بلوغه السنة الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، بل تنشأ منذ ولادته نتيجة مختلف حركاته وتصرفاته، ويظهر هذا الإحساس بصورة مكتملة عند بلوغه.

وإننا نتفق مع فرويد في هذا الأمر أيضا، فإن الإسلام يعلِّم أن الإحساس بالخير أو الشر يبدأ منذ الصغر، ولذلك أمر الرسول ﷺ بالأذان في أُذن الوليد منذ لحظة ولادته، لأن فترة تعليمه وتربيته تبدأ منذ ولادته. فإذا كان فرويد يعني هذا بالضبط فنقول له: لستَ مخترعَ هذه النظرية، بل إن محمدا رسول الله ﷺ هو مخترعها.

ورغم تسليمنا بهذه النتائج، نقول لأصحاب هذه النظرية: حتى ولو كانت جميع المفاسد تنشأ في القلب منذ الصغر، فإن السؤال الذي يفرض نفسه هنا: هل يمكن إصلاح المرء بعد فساده أم لا؟ أو هل يمكن –بطريق أو آخر– إزالةُ فساد فطرته الذي يحصل بتأثير المحيط أم لا؟ فإذا كان ذلك ممكنًا فقد بطل الزعم أن فطرة الإنسان ليس فيها مَلَكَة الخير. إن العلاج الذي يصفه أصحاب هذه النظرية على ضوء علم التحليل النفسي لكافٍ في حد ذاته لإبطالها.

إن هذه النظرية التي يُعتبر فرويد مخترعَها تُقدَّم على أن الطفل يعشق أُمَّه أولاً، ولكن عاطفته هذه تُكبَت بحُكم محيطه أو بسماع أقوال رجال الدين، فيحبّ زوجتَه بدلاً من أمه. ولكن عاطفة حُبِّ الأُمّ تكون قوية في البعض بحيث لا تغلبها أي محبة أخرى، ولكنه حين يسمع من رجال الدين بأن الأم لا يمكن أن تكون مثل الزوجة فيصاب باضطراب نفسي، فمن ناحية يقول له الدين إن الأُمّ لا يمكن أن تكون زوجة، ومن ناحية أخرى يجذبه حُب أمه الذي تولَّد في قلبه في صغره عند امتصاصه ثديها، فلا يقدر على مقاومة هذه الأفكار المتضادّة، فيصاب بأنواع الأمراض النفسية. ويقولون لا شك أن سبب هذا المرض لا يكون معروفًا عند المريض نفسه أحيانًا، ولكنه إذا خضع لعلاج التحليل النفسي انكشف سبب مرضه الخفي وأمكنَ شفاؤه بسهولة. لقد جمع هؤلاء -لدى دراسة هذه القضية بالتفصيل- حوالي مائة عامل تؤثّر على الوليد فتصيبه بأمراض مختلفة. عندما يحضر المريض يأمره طبيب التحليل النفسي بالاستلقاء أمامه باسترخاء، فيضع يده على نبضه، ويتجاذب معه أطراف الحديث في شتّى الأمور، فيتحدث معه عن حب الأم وعن حب الأب وعن حب المال مرةً وما إلى ذلك، ويراقبه باستمرار من خلال جسّ نبضه ليرى أيٌّ من هذه الأمور يسرِّع نبضَه بشكل ملموس. ومعلوم أنه إذا ذُكر أمام المرء أمرٌ يرغب فيه خاصةً تسارعت دقاتُ قلبه، وبالتالي تسارع نبضُه، وهكذا يعلم الطبيب سببَ مرضه الحقيقي، وإذا كانت العاطفة التي سببت له المرض سليمةً أشار عليه الطبيب أن ينفّذها، وإذا كانت عاطفةً غير مباحة كشف عليه قبحها بالمحاضرات المتتالية إلى أن تخرج تلك الرغبة من قلبه ودماغه. وحيث إن السبب الحقيقي للمرض قد زال، فيزول مرضه ويشفى.

وقد قام هؤلاء بتجارب عديدة في العلاج بالتحليل النفسي وقدَّموا حالات قطعية لمرضى لم يُشفَوا بأي علاج، لكنهم لما خضعوا للتحليل النفسي انكشفت رغباتُهم الخفية، فتماثلوا للشفاء إما بتحقيق رغباتهم أو بالإقلاع عنها.

بعد الحرب العالمية الماضية (الثانية) كان هناك آلاف الناس الذين أصيبوا بالجنون نتيجة صدمات القصف، فشُفي الكثير منهم بشتى العلاجات، بينما لم يُجْدِ بعضهم

أي علاج، ففكّرت الحكومة أخيرًا أن تتم معالجتهم بالتحليل النفسي. فكشف الفحص أن كثيرا منهم مصابون بالجنون بصدمات القصف في الظاهر، ولكن مرضهم الأساس عدم تحقيق بعض رغباتهم، فعُولجوا على ضوء ذلك فتماثلوا للشفاء تماما، مع أنه لم ينفعهم من قبل علاج ولا دواء. ويقال إن آلافًا من أمثال هؤلاء المرضى في أوروبا شفوا بهذا الطريق من العلاج.

ونقول لهؤلاء في الجواب: لا شك أن في أوروبا آلاف المرضى كهؤلاء، ولكنا لا نرى في بلادنا أي مريض كهذا، مما يدل أنه ليس مرضًا بشريًّا عالميًّا، بل هو مرض محليّ تفشّى في أوروبا. لو كان مرضًا بشريًّا لوُجد في الهند ومصر والشام وفلسطين والصين واليابان، ولكن لا نجد أثرًا له في العالم إلا في أوروبا، مما يدل أنه مرض أوروبي خاص لا علاقة له بالناس جميعا. الواقع أن الناس في أوروبا متورطون في الشر والفساد عمومًا، وصارت أفكارهم نجسة، فيصابون بمثل هذه الأمراض، فإذا تحققت رغباتهم وأهواؤهم تماثلوا للشفاء. أما عندنا فإن الأفكار تكون طاهرة بشكل عام، ولا يوجد عندنا ما نرى في أوروبا من فسق وفساد، فلا يحتاج أحد عندنا إلى مثل هذا العلاج. فلو صحّت نظرية الفلاسفة الأوروبيين، فنقول لهم إنه مرضُكم المحلي، وليس مرضَ الجنس البشري. ولو سلّمنا جدلاً أنه مرضُ الناس جميعا قلنا لهم أيضا لقد اعترفتم بإمكانية إصلاح الفساد، وهكذا أكّدتم صدق قول الله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.. أي أن مِن سنّتنا أن نهيّئ أسباب الشفاء حين تمرض الروح الإنسانية، وهذا هو معنى نقاء الفطرة الإنسانية، أي أن الله تعالى يهيئ الأسباب لهدايتها وإصلاحها، فإذا انتفع بها الإنسان صار طاهرا نقيا، وإذا لم ينتفع صار أسوأ من الحيوانات.

باختصار، إن الإسلام يعلن أن الظن بأن الفطرة الإنسانية فاسدة دومًا وأن طريق وصولها إلى الله تعالى مسدود دوما، لهو ظنٌّ باطل لا أساس له. لقد خلق الله تعالى الإنسان بحيث إن إزالة فساده وجلاء قلبه وإيصاله إلى العتبة الإلهية ممكن مهما بلغ من الضعف والفساد. إن الإسلام لا يعني من صلاح فطرة الإنسان أنه يظل صالحًا على الدوام، بل يسلّم الإسلام أن المحيط الفاسد والظروف السيئة تمسخ

فطرته، لكنه يقول أيضا أن باب إصلاح الإنسان لا يُغلق أبدا، فكلما أراد أحد إصلاح نفسه والإقلاع عن السيئات وفعْل الخيرات فهو ممكن له، لأن الله تعالى قد خلَق في فطرته كفاءات الخير، وإذا لم ينتفع منها فهذا ذنبه هو، أما إذا اغتنمها فلا بد أن يظهر ما في فطرته من خير، ومن المحال أن لا يهتدي ويظل محرومًا من قرب الله تعالى رغم مجاهدته.

باختصار، إن الإسلام يسلّم بتأثير المحيط ويسلّم أيضا أن الولد يتأثر من الخير والشر منذ الصغر، ولكنه يعلن أيضا أن إصلاح كل إنسان ممكن. إن أنصار نظرية فرويد أيضًا يسلّمون أن إصلاح الإنسان ممكن، واعترافهم هذا دليل على أن الله تعالى قد أودعَ فطرةَ الإنسان مَلَكَة الخير؛ إذ لولاها لاستحال إصلاحه؟ كما نشاهد أن معظم الناس يتأثرون بالوعظ ويتركون الكبائر، فإذا لم يكن في الإنسان مَلَكة الخير فكيف يتأثر بالوعظ، وكيف يترك السيئات ويعمل الخيرات؟ والحال نفسه للدعاء، فإنه يُحدث في المرء انقلابات عظيمة. فالذين لا يتوجهون إلى الله تعالى أبدًا ويستمتعون بأنواع المعاصي جاعلين هدف حياتهم الانغماس في متع الدنيا، حين يؤمنون بأنبياء الله تعالى يتبدلون كلية ببركة إيمانهم وبركة دعاء الأنبياء وقوتهم القدسية. إن هذين الطريقين للجهد المادي والروحاني مفتوحان في الدنيا دائما وسيظلان كذلك، وهما دليلان على أن الله تعالى قد خلق فطرة الإنسان صالحة.

أما السؤال: ماذا عن الذين لا يجدون فرصة للترقي في الصلاح والخير؟ فالجواب أن الشريعة تقرّ بأن الذي لم تُتح لفطرته فرصة الترقي بحُكم التأثيرات الخارجية فإنه سيُمنَح فرصة أخرى، وفساده لا يسمى فسادَ فطرته بحال، بل هو فساد محيطه. وهذه الآية تؤكد أن خلق الإنسان هو في أحسن تقويم، ولا تقول أن أحدًا لا يصير فاسدا بفساد المحيط والظروف.

باختصار، قد بين الله تعالى في هذه الآيات أن مجيء آدم ونوح وموسى ونجاحهم في جهودهم الإصلاحية وثورتهم الروحانية لدليلٌ على أن الله تعالى قد خلق الإنسان في أحسن تقويم، أي أنه تعالى قد جعل في خلق الإنسان مبادئ

وقواعد بحيث إنه يمكن أن يبلغ أعلى درجات الاعتدال والكمال، كما هو ثابت من الأحداث المذكورة من قبل. فإن آدم ونوح وموسى وأتباعهم لبرهانٌ ساطع على هذا الأمر، وأن محمدا سيكون في المستقبل دليلا آخر على صدق قول الله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

والعقيدة الجبرية الرابعة تقول إن الإنسان خُلق مجبورا، وكأنه يرتكب السيئات مجبرًا بقانون الله تعالى، وأنه لا ذنب له في ذلك. والإسلام يرفض هذه العقيدة رفضًا باتا. وحيث إن أصحاب هذه النظرية هم أصحاب الدين ولا سيما المسلمون المبتدعون، لذلك أردّ عليها بأدلة من القرآن الكريم.

يقول الله تعالى ﴿وهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾(الفرقان:٦٣).. أي الله الذي جعل الليل والنهار يتناوبان، غير أنه لا ينتفع من ظاهرة تناوب الليل والنهار إلا من يريد أن يتّعظ أو مَن يتحلى بخُلُق الشكر.

لقد بيّن الله هنا أن الناس نوعان: الأول هم الذين يضعف فيهم جانب الخير بحيث إنهم يتبعون سبل الشيطان ويستحقّون الوعظ والإنذار ليتجنبوا السيئات. والنوع الثاني هم قوم محرومون من ذلك النور الذي يناله الإنسان باتّباع دين، غير أنهم يتحلون بعاطفة الشكر، فلا يسيئون استخدام ما أعطاهم الله من نِعَم وكفاءات، بل ينتفعون بها وينفعون بها الآخرين؛ فهم قوم لهم نصيب من الخير والخُلُق. فالله تعالى يعلن هنا أننا قد خلقنا في الدنيا ظاهرة تناوب الليل والنهار، أي أن الله يبعث الأنبياء والرسل لإصلاح الدنيا تارةً، بينما تسود العالَمَ الظلمةُ والضلال تارة أخرى؛ وهل تعرفون ما الحكمة في تناوب الليل والنهار الروحانيين، ولماذا نأتي بالليل بعد النهار؟ ولماذا نُطلع شمس الهداية بعد ظلمة الضلال؟ ذلك لنجعل العصاة والآثمين المحتاجين إلى الهدي والوعظ والتذكير صالحين من خلال الرسل، وأما الذين هم واقفون عند مقام الصلاح الفطري فنوصلهم من خلال كلام الله ووحيه إلى مقام أرفع.. أي مقام الشكر. باختصار، يعلن القرآن الكريم أن إصلاح كل إنسان ممكن، ولو أن الله تعالى خلق الإنسان للشر لما وجدتم ظاهرة

تناوب الليل والنهار في الدنيا، إذ إن غرضها الأهم أن يؤتى بالطالحين إلى الصلاح، ويؤخذ بالصالحين إلى مقام روحاني أرفع.

كذلك قال الله تعالى ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾(فاطر:٣٨).. أي أن أهل النار عندما يُلْقَون فيها يوم القيامة يصرخون ويقولون ربنا أخرِجْنا من الجحيم ونحن نعِدك أننا سنعمل الصالحات وسنزداد برًّا وصلاحًا خلاف ما كنا نعمل من قبل. لقد كنا نسرق ونأكل أموال الناس ونكذِب ونحارب الأنبياء، ولكنا لن نعود إلى هذه المساوئ الآن. فلو كان الإنسان قد خُلق سيئًا ونجسًا، فكان ينبغي أن يقول الله لأهل النار: أيها الأشقياء، لِمَ تقولون إنكم ستعملون الصالحات مستقبلا؟ فإني لم أخلُقكم إلا للسرقة والسطو والكذب والخداع ومحاربة الأنبياء، أو قال لهم: كيف يمكن أن تعملوا الخير، وقد جعلتُ في فطرتكم الشر والفساد، وأنتم مجبرون على ارتكاب المعاصي والسيئات؟ ولكن الله تعالى لا يرد عليهم بهذا بل يقول ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾.. أي قد منحتُكم من العمر والمهلة ما يستطيع فيه الإنسان أن يتّعظ بسهولة إذا أراد، ولكنكم لم تنتفعوا منها، و لم تصلحوا أحوالكم، فلا قيمة لقولكم الآن: لو أرجعتنا إلى الدنيا فسنعمل الصالحات دائما. كلا، لقد آتيناكم فرصة عظيمة ولكنكم ضيعتموها.

فترى أن الله تعالى قد اعتبرهم مجرمين قائلا لقد أعطيتكم من العمر ما تتعظون فيه إذا أردتم، ولكنكم لم تتعظوا. وهذا الجواب لا يستقيم إذا كان الله تعالى قد جعل فطرة الإنسان فاسدة، وبالتالي هو مُجبَر على فعل السيئات نتيجة هذا القانون الإلهي، إنما كان ينبغي أن يقول الله لهم –في هذه الحالة– كيف يمكن أن تصبحوا صالحين، هذا محال لأنني قد خلقتكم كي أُلقيكم في الجحيم.

والحجة الثانية التي كان يمكن أن يقدمها أصحاب الجحيم هي: كنا جاهزين لأن نتعظ بالوعظ، ولكنك لم تهيئ لنا أسبابا للهدى، فبقينا محرومين من الصلاح والخير، فيفنِّد الله حجتهم هذه ويقول ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾.. أي لا يمكن أن تزعموا

أننا لم نهيئ لكم أسباب الهدى، بل قد جاءكم النُذر على التوالي ينذرونكم سخطنا ومغبّة مخالفة أحكامنا، ولكنكم لم تتعظوا بوعظهم.

إن هذين الجوابين يقضيان على عقيدة الجبر كلية، وقد ثبت منهما أن الله تعالى لم يخلق أي إنسان مجبرًا، وإلا فكان ينبغي أن يقول الله للكفار لما وعدوه بعمل الصالحات إذا أُرجعوا إلى الدنيا: كيف يمكن أن تعملوا الصالحات وقد خلقْتُكم مجبرين وجعلتُ فطرتكم فاسدة بحيث لا تقدرون على فعل الخيرات؟ ولكن الله لا يجيبهم بهذا الجواب بل يقول: لقد أعطيتكم من العمر ما تستطيعون أن تتّعظوا به وتُصلحوا أعمالكم بسهولة. وهذا يعني أنكم لم تكونوا مجبرين بل كنتم مخيّرين في أن تفعلوا ما تشاءون، وقد منحتُ لكم الفرصة لذلك أيضًا. وكانت الحجة الثانية التي يمكن أن يحتج بها أهل النار هي: لو كانت أسباب الوعظ ميسرة لاتعظنا، وإذا لم نستطع الهدى لقصور عقولنا وجهل آبائنا فما ذنبنا في ذلك؟ ففنّد الله حجتهم هذه قائلا: لا يمكن تقديم هذه الحجة أيضا، لأننا قد أرسلنا إليكم النذر وبيّنّا لكم طريق الهدى وطريق الضلال أيما تبيان.

ثم يقول الله تعالى لأهل النار ﴿فَذُوقوا فَمَا للظّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾. وهذا ردٌّ ثالث على عقيدة الجبر. فلو كان الله تعالى قد أجبر الناس على فعل السيئات لعُدَّ ظالما – والعياذ بالله. إن الذي يُجبَر على عمل فلا يكون ظالما، بينما نجد أن الله تعالى يَعُدّ هؤلاء الناس ظالمين ويقول لهم: لسنا ظالمين، بل أنتم الظالمون إذ لم تتوجهوا إلى الله تعالى رغم ما هيأه لكم من أسباب الهدى وفُرَصِها، وإنما اتبعتم أهواءكم.

إن هذه الآيات برهانٌ قاطع على بطلان اعتقاد بعض المسلمين أن الإنسان مجبر. كلا، بل قد خيّر الله تعالى الإنسان في أن يصبح صالحا أو تابعًا للشيطان.

والعقيدة الجبرية الخامسة تقول إن الإنسان يُخلَق في الدنيا ليعاقَب على أعماله السابقة، فلأن هناك أعمالا سيئة، فمَن ارتكبها خلقه الله تعالى فقيرا ضعيفا فاسد الأخلاق، وأما الذين هم ميسورو الحال أصحاء فهم أيضا ليسوا متحررين من السيئة في الحقيقة، فولادتهم تدل على أنهم لم يتحرروا من تأثير الإثم كلية، وإلا لم يُلقَوْا في دورة الولادات المتكررة هذه. (ستيارتهـ بركاش باب ٩ ص ٢٤٧)

هذه العقيدة تسمى التناسخ. وأول ما يقال في تفنيدها هو أن أساسها الظنّ والتخمين. ذلك أن أصحابها يتساءلون: لماذا يولد الإنسان في الدنيا أعمى وأعرج وفقيرا وبائس الحال؟ ولماذا يموت بعض الولدان في الصغر؟ ولماذا يكون البعض فقيرا والبعض ثريا، والبعض صحيحا والبعض كسيحا، والبعض عاقلا والبعض غبيا، والبعض قويا والبعض ضعيفا؟ وبعد إثارة هذا الاعتراض يقول أصحاب هذه النظرية: من المحال أن يعزى الظلم إلى الله تعالى، فيبدو أن الإنسان يأتي إلى الدنيا لينال الجزاء على أعماله التي عملها في الولادة السابقة، وحيث إن البعض قد عمل أعمالاً حسنة في ولادته السابقة، والبعض الآخر قد عمل السيئات، لذلك نرى البعض في بؤس وآلام والبعض في راحة ويسر.

هذا هو الأساس الذي بنوا عليه عقيدة التناسخ. والحق أن هذه الأسئلة التي أثاروها يمكن أن يُجاب عليها بطرق أخرى أيضًا. فمثلاً إن الذي لا يؤمن بكون الله عادلاً سيرد على هذه الأسئلة بقوله: إن هذا الاختلاف راجع إلى كون الله ظالما. ويمكن أن يجيب الآخر: إنّ العَمى والعَرَج والكُساح ليس خاضعًا لقانون الشريعة بل هو خاضع لقانون الطبيعة، فمثلاً إذا تعثر المرء في مشيته وسقط فلن نقول إنه تعثر عقابًا على عملٍ له في الولادة السابقة، بل يقال إن عثاره نتيجة لمخالفته لقانون طبيعي. كذلك إذا وُلد المرء أعمى أو أعرج أو مريضا، فلن يقال أن مرضه عقاب على عمل سبق منه، بل الواقع أنه نتيجة طبيعية لقانونٍ طبيعي ظهرت على جسمه لمروره في ظروف خاصة. فما دام هذا السؤال يمكن أن يجاب عليه بأجوبة عديدة فلا يصح ترجيح جواب منها بلا سببٍ مُرجِّح، فهذا مرفوض عند العقل. ولكن أصحاب التناسخ لم يستطيعوا أن يقدّموا هذا السبب المرجِّح حتى اليوم.

وثانيًا: نقول لأصحاب التناسخ إن السؤال الذي تقدّمونه دعمًا لعقيدتكم نقدّمه نفسه تفنيدًا للتناسخ. السؤال الأساس هو: لماذا هذا الاختلاف في الدنيا؟ فأجبتم أنه نتيجة أعمال الإنسان السابقة. ولكنا نقول: إذا كانت حياة إنسان في هذه الدنيا نتيجة أعماله في ولادة سابقة فجاء إلى الدنيا ليُجزى على أعماله السابقة،

فلماذا نجد بعض المواليد يموتون فور ولادتهم؟ ولماذا جاء هذا المولود إلى الدنيا وأي جزاء ناله؟ لو أنه تعرّضَ للمشاكل والمصاعب وتحمّلَ أنواع الآلام بعد ولادته أمكن القول أنه قد نال جزاء أعماله السابقة، ولكنا نرى أحيانًا أنه ما إن يولد الوليد حتى يموت، وفي أحيان كثيرة لا يولد مطلقا، بل يموت إجهاضًا. فإذا كان الإنسان يولد في الدنيا ليُجزى على أعماله السابقة فما هو الجزاء الذي يناله الوليد الذي يموت فور ولادته أو يسقط من بطن أمه قبل الولادة؟ إنه لا يعاني أية آلام في الدنيا. إنما مثله كمثل مجرم يأمر الحاكم بسجنه، فما إن يصل إلى باب السجن حتى يأمر بإرجاعه دون أن يدخل السجن. لا شك أن هذا الفعل العبثي خلاف للعقل. فثبت أنه إذا كان أصحاب التناسخ يقدّمون مثل هذه الحالات تأييدًا لعقيدتهم فإنها يمكن أن تُقدَّم إبطالاً لها أيضًا.

والسؤال الثالث هو: إذا كان التناسخ صحيحًا فلماذا تؤثّر على الإنسان أعماله الحالية؟ إذا كان قد جاء إلى الدنيا لينال جزاء أعماله في الولادة السابقة، فيجب ألا يتخلص من آلام الدنيا بحال من الأحوال. لنفترضْ أن الله تعالى يقرر عقاب شخص على سيئاته في ولادته السابقة بأن يظل في الدنيا عرضة للشدائد والمصاعب خمس وثلاثين سنة، فينبغي أن يظل عرضة للشدائد والمحن في هذه المدة، ولكنا نرى أن بعض الناس لا يقدرون على تحمُّل الأذى فيتناولون السمّ وينتحرون، مع أنه لو كان التناسخ صحيحا، ولو أن هذا الإنسان قد جاء إلى الدنيا لينال جزاء أعماله السابقة لفترة معينة فيجب أن لا يؤثّر عليه السم، وإنْ تناوَله آلاف المرات، لأن الله تعالى قد أرسله إلى الدنيا ليعاقَب عقوبةً معينة. كذلك نجد أن البعض ينتحر بإغراق نفسه في النهر حيث يربط بعنقه حجرًا ويدخل في الماء ويغرق، مع أن المفروض بحسب هذه العقيدة أن لا يغرق ولا يموت، لأن الله تعالى قد أرسله إلى الدنيا لينال عقوبة أعماله السابقة أربعين أو خمسين سنة مثلاً. فعقيدة التناسخ لا تحول دون مَن أراد الانتحار بإغراق نفسه في النهر أو بتناول السمّ فرارًا من هذا العذاب المقدر له في الدنيا، وإن كانت مدة عذابه أربعين سنة. كذلك من يولد في بيت فقير جزاءً على أعماله السابقة يجب ألا يصبح ثريا، لكننا نرى أن كثيرا من الفقراء يجتهدون

ويصبحون أصحاب الملايين. هناك أمثلة كثيرة في الهند وغيرها من البلاد لأشخاص كانوا فقراء، فاجتهدوا وأصبحوا من كبار الأثرياء. لقد نهضوا من الحضيض ووصلوا إلى القمة. فإذا كان الإنسان يأتي إلى الدنيا ليعاقَب على ولادته السابقة فلماذا يتناول السم ويهلك مع أنه قد جاء إلى الدنيا ليظل مسجونًا في آلامها مدة معينة! ولماذا يصبح الآخر ثريًّا بالكدّ والتعب مع أنه قد وُلد في بيت فقير عقابًا على أعماله السابقة، فكان ينبغي أن لا تتحسن حالته أبدا، إذ كيف يمكن أن يرسل الله إلى هذه الدنيا سجينًا، فيأتي إليها ويصبح ملكًا؟ إن أوامر الحكومات الدنيوية لا يمكن أن يخالفها أحد، فكيف يقدر أحد على مخالفة أوامر حكومة السماء؟ وهل يمكن أن يخلق الله أحدًا مريضا عقابا له ولكنه ينال الشفاء بالعلاج؟ لو سلّمنا أن الله تعالى قد خلقه مريضا عقابا له، فيجب أن لا يُشفى بالعلاج، ولكن ما نشاهده كل يوم في الدنيا هو خلاف ذلك، حيث يكون الناس مرضى فيُشفَون بالعلاج، ويكونون فقراء فيصبحون أثرياء نتيجة الكفاح، ويتناولون السمّ فيموتون بتأثيره. لو كانت نظرية العقاب على أعمال الولادة السابقة صحيحة فكان ينبغي ألا يُشفى المرضى وألا يغنى الفقراء وألا يهلك أحد بتناول السمّ وألا يؤثر على الإنسان أي عمل من أعمال هذه الدنيا. فللإنسان حياة حرة واحدة بحسب نظرية التناسخ، وهي حياة ولادته الأولى، أما حياته في باقي الولادات فيجب أن تكون جبرية بسبب عقوبة أعماله السابقة.

والاعتراض الرابع أنه إذا كان التناسخ صحيحًا فلماذا يموت الناس والحيوانات عند الأوبئة؟ لماذا يتفشى الوباء فجأةً ويفتك بمئات الآلاف من الناس والحيوانات؟ ما هي الجريمة التي يعاقَبون عليها عقابًا جماعيًّا؟ إن فترات عقوبة كل واحد منهم تكون مختلفة، ومع ذلك يأتي الوباء ويكتسح الجميع مرة واحدة.

ثم إذا كان التناسخ صحيحا فلماذا يهلك آلاف الناس في الحروب والزلازل؟ ما هي المناسبة السارّة التي بسببها يُمنَح الناس والحيوانات هذه الحرية من سجن الحياة؟ إننا نرى في الدنيا أن الملك إذا رُزق ولدًا أعلن بإطلاق سراح المساجين، وإذا كان في الأسرة الملكية عرسُ زواج أعلَن إطلاق سراح عدد من السجناء، فهل يا ترى

هناك مناسبات سارة عند الله تعالى أيضا حتى يرسل الوباء الذي يُهلك مئات الآلاف من البشر ويحررهم من معاناة هذه الحياة الدنيا، أو يرسل زلزالاً يهلك مئات الآلاف من البشر؟ وأحيانًا يرسل الطاعون أو الهيضة أو الإنفلونزا أو الملاريا؛ وكأن هذه الأوبئة مُدراءُ السجون الذين يأتون للسجناء ببشارة الإفراج عنهم! بأي مناسبة سارّة يطلق سراح هؤلاء الضحايا؟ ولماذا يموت الناس في الدنيا نتيجة الأوبئة والكوارث بكثرة حينًا وبقلّةٍ حينًا آخر؟ هل عند الله مناسبات سارة عادية، ومناسبات سارة ضخمة، فيطلق عند الفرحة العادية سجناء قليلين، وفي الفرحة الكبيرة سجناء كثيرين، فتارة يحدث زلزالا وأخرى يُنزِل طاعونا أو ثالثة يفشّي الهيضة والملاريا التي تتسبب في الإفراج عن مئات الآلاف. يجب أن يكون لهذه الظاهرة سبب ما. فكما أن أصحاب التناسخ عندما رأوا هذا الاختلاف في الدنيا أتوا له بتبرير، كذلك من حقنا أن نسألهم: ما هو السبب وراء هلاك مئات الآلاف في هذه الكوارث؟ وما هي مناسبة الفرحة عندها التي من أجلها يأمر الله تعالى بتحرير هذه الأرواح؟

والسؤال الخامس هو أن التناسخ لو كان صحيحا فلماذا يتخذ الهندوس شتى التدابير الوقائية عند الزلازل، ولماذا يأخذون الحقنة عند تفشي الأوبئة كالطاعون والهيضة، فهذا عقابهم على أعمالهم السابقة، والطاعون والهيضة رسالة عفو لهم في الواقع فلماذا يحاولون اتقاءها. هل يرفض السجين مَن أتاه برسالة الإفراج عنه؟ ماذا عسى أن يكون جواب أصحاب التناسخ لشخص يسألهم هل آخذ الحقنة للوقاية من الطاعون والهيضة أم لا؟ أيقولون لا تأخذ الحقنة، لأن هذه الحياة سجن وهذه الأوبئة رسالة تحرير من قبل الله، فعليك أن تفرح لتفشي هذه الأوبئة، أم يقولون له عليك أن تأخذ الحقنة فإنها علاج مجرَّب ينقذ حياتك؟

فثبت أن اتخاذ الهندوس شتى التدابير الوقائية من الأوبئة والزلازل دليل بيّن على أن هذه الحياة ليست عندهم سجنًا يريدون التحرر منه، بل إنها ذريعة لكسب الخير، وإطالتُها عمل صالح.

والسؤال السادس هو: لماذا تتولد أحيانا بلايينُ الحشرات والديدان في ساعة واحدة؟ إذ تتولد في قرية واحدة أو مدينة واحدة بلايين البلايين من الديدان والحشرات في أيام المطر. والسؤال: ما هي الجريمة التي يرتكبها الناس عندها بكثرة فتتولد بلايين الديدان والحشرات في ساعة واحدة؟ ثم أين العقوبة، إذ لا تمضي ساعات على خلق هذه الحشرات والديدان إلا وتموت! مما يعني أن بلايين البلايين من الأرواح تُلقى في السجن، ثم تتحرر كلها بعد ساعة أو قريب من ذلك؟ فالسؤال هنا: ما هو الإثم الذي يرتكبه الناس في أيام المطر بكثرة، والذي بسببه تُخلق هذه بلايين البلايين من الديدان في لمح البصر؟ ثم لماذا يُطلَق سراحها بهذه السرعة؟ هل هناك عرس عند الله تعالى حيث يُطلق سراح هذه الأرواح البالغ عددها بلايين البلايين من سجن الحياة بهذه السرعة؟

والسؤال السابع هو: إن التسليم بالتناسخ يستلزم التسليم بأن الكون كله قائم على الإثم –والعياذ بالله– ذلك أن القائلين بالتناسخ يقولون أن الحيوانات تُخلق في العالم نتيجة آثام الناس، فبعضهم يتحول بسبب ذنوبه بقرةً في خلقه الجديد، وبعضهم يُخلَق جاموسًا، وبعضهم حصانًا، وبعضهم حمارًا (ستيارتهـ بركاش باب ٨ ص ٢٢١-٢٢٢). وحيث إن الخضار والنباتات تتمتع بنوع من الحياة، فلا بد أن تكون قد خُلقت نتيجة ذنوب الناس. وحيث إن الحيوانات كلها قد خُلقت نتيجة آثام الناس فثبت أن الكون قائم على الإثم وحده، ولو محي الإثم لم تكن هناك بقر وجواميس يشرب الإنسان لبنها، ولا خيل يركبها، ولا خضار يأكلها، وهكذا اختلّ نظام الكون كله.

ثم يجب أن نأخذ بالاعتبار أن هذه الأشياء لا يستعملها الأشرار فقط، بل لا مناص منها للصلحاء، فهم أيضًا مضطرون لشرب لبن البقر وركوب الخيل وحصاد الزرع، وأن يظلوا محتاجين إلى الجاموس والثور وما إلى ذلك. إذن، فحسب هذه العقيدة لا يستطيع الصلحاء أيضا العيش في هذه الدنيا إلا بالإثم، لأن الأرواح التي تأتي إلى هذه الدنيا في ولادات مختلفة بحسب هذه العقيدة هي التي يقوم بها الكون.

وهنا ينشأ سؤال آخر ضمنيا: ماذا كان الناس الذين وُلدوا أول مرة يأكلون ويشربون؟ تكشف البحوث الجديدة في علم النباتات أن القمح والخضار وغيرها من النباتات أيضا تملك الحسّ، مما يعني أن فيها أيضا نوعًا من الحياة عند أصحاب التناسخ، وما دام كل ما فيه حياةٌ يولد نتيجة الآثام بحسب التناسخ، فالسؤال الذي ينشأ هنا طبعًا: ماذا كان الناس الأوائل يأكلون؟ بل هناك سؤال آخر: لماذا جعل الله الماء ماءً والهواء هواء؟ كيف جاز له هذا التفريق؟ لا بد أن يكون الماء قد خُلق ماءً عقوبةً، وكذلك لا بد أن يكون الهواء خُلق هواءً عقوبةً بحسب هذه العقيدة؛ فالسؤال الآن: ماذا كان الإنسان يأكل ويشرب وبأي شيء كان يتنفس عندما خُلق أول مرة وقبل أن تظهر نتائج أعماله؟ سؤال ليس عند أهل التناسخ جوابه؟

والسؤال الثامن هو: إذا كانت البقر والجواميس تُولَد نتيجة الإثم، فلماذا تنفع وصْفاتُ علماء علم الحيوانات من أجل تكثير هذه الحيوانات؟ فهل يُكثِرُ الناس من ارتكاب تلك الذنوبَ التي تتسبب في ولادة هذه الحيوانات بكثرة حين تكون هذه المواشي تحت رعاية هؤلاء العلماء؟

قبل فترة أعلنت الحكومة الهندية أن عدد البقر والجواميس قد نقص إلى النصف في الستّ والعشرين سنة الماضية، ولِسَدّ هذا النقص ينبغي على الناس تربية هذه المواشي أكثر فأكثر. فكان على الهندوس عند هذا الإعلان أن يبعثوا إخطارا للحكومة أن هذا الطريق لتكثير المواشي خطأٌ تماما، فإن البقر والجواميس تولد نتيجة كذا وكذا من الآثام، وإذا كانت الحكومة تريد زيادتها، فعليها أن تنشر هذه الذنوب في البلاد، فتكثر هذه الحيوانات تلقائيا. ولكن الهندوس لم يبعثوا إلى الحكومة أي إخطار كهذا، ولن يبعثوه في المستقبل، مما يعني أنهم يُقرّون أن زيادة عدد المواشي ممكن بالعمل بما ينصح به علماء علم الحيوان. وإذا كان العمل ببعض التدابير المادية يمكن أن يزيد في عدد الحيوانات فثبت أنها لا تتولد نتيجة أي إثم يرتكبه الناس.

والسؤال التاسع: إذا كان التناسخ صحيحا فلماذا تتخذ الحكومات إجراءات لحماية الطيور من الصيْد؟ عليها أن تأمر الناس بارتكاب ذنوب معينة لتكثير هذه

الطيور بدلاً من اتخاذ هذه التدابير. فيقال للناس مثلاً عليهم أن يرتكبوا كذا وكذا من الذنوب لأن طيور السماني قد قلّتْ، وعليهم أن يرتكبوا كذا من الذنوب لأن طيور الحجل قد نقصت؛ ذلك أن أصحاب التناسخ يقولون أن ذنوبًا معينة هي التي تتسبب في ولادة هذه الطيور وليس هناك سبيل لزيادتها.

والسؤال العاشر: إذا كان التناسخ صحيحا فيجب أن يكون قتل إنسان مستحيلاً، إذ كيف يمكن أن يقدر أحد على قتل إنسان في سن الثلاثين مثلاً مع أن الله تعالى قد أراد له أن يعيش في الدنيا أربعين سنة؟ يمكنه أن يضرِب عنقه بالسيف، ولكنه لن يتمكن من قتله، لأن الله تعالى قد أرسله إلى الدنيا لأربعين سنة، وتحرُّره مِن سجنها قبل ذلك محال. أما إذا نجح القاتل في قتله فلا بد من القول إن هذه هي المشيئة الإلهية، وأن القاتل قد حرّره من سجن الحياة بأمر الله تعالى، ولكن ليس من المعقول في هذه الحالة أن يعاقَب القاتل، بل ينبغي أن يكلَّل بالورود إذ نفذ مشيئة الله، ومثله كمثل الجلاّد يَشنق الناس ومع ذلك لا يعاقَب، ذلك لأنه يُعدِمهم تنفيذًا لأمر الحاكم لا مِن عند نفسه. كذلك فمن ألقاه الله في سجن الدنيا، فينبغي ألا يقدر على تحريره منه أحد أولاً، وإذا تمكّنَ أحد من تحريره منه، فلا شك أنه قد حرّره وفقًا لمشيئة الله تعالى، وعليه فيجب أن لا يعاقَب، بل يجب أن يُكلّل بالورود إذ أطلق سراحه من سجن الدنيا تنفيذًا لمشيئة الله.

باختصار، إن عقيدة التناسخ مخالفة للعقل كالعقيدة البوذية، والحقيقة الناصعة هي ما بيّنه القرآن الكريم بأن الإنسان قد خُلق معتدلَ القوى إذ ليس فيه قوة يقال إنها سيئة تمامًا، وليس فيه قوة يقال إنها حسنة كليّةً، وليس المراد من كونه معتدلَ القوى إلا أنه يميل إلى الشرّ أحيانًا، ويميل إلى الخير أحيانا أخرى.

قد يقال هنا: إذا كان الإنسان يمكن أن يميل إلى الشرّ فما فائدة خلقه في أحسن تقويم؟ فالجواب: من أجل ذلك يبعث الله أنبياءه وينزل شريعته لهداية الناس. لقد جاء آدم ونوح وموسى ومحمد ﷺ كلهم لينهضوا بالساقطين ويوصلوهم إلى عتبة الله تعالى. لا شك أن الناس يبتعدون عن الله تعالى أحيانًا نتيجة سوء استعمال كفاءاتهم، ويصبحون عبيدًا للشيطان باتّباع أهوائهم، لكن الأنبياء

يقومون بتربيتهم، فيأخذون بهم إلى الله تعالى مرة أخرى، ويصقلون قلوبهم مستثيرين كفاءاتِهم، ويجعلونهم مظاهرَ صفات الله تعالى ثانية.

ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٦﴾

التفسير: ضمير المتكلم في ﴿رَدَدْناه﴾ راجعٌ إلى الله تعالى، والمعنى أنه تعالى يُسقِط الآثم من مقامه عقابًا له، وليس أنه تعالى يدفعه إلى الإثم. هذه الآية تماثِل ما أخبر الله تعالى عن آدم أنه تعالى أخرجه من الجنة (البقرة:٣٩) بينما أخبر في آية أخرى أن الشيطان هو الذي أخرجه منها حيث قال ﷻ ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّة..﴾(الأعراف:٢٨)، ولا شك أن إخراج الشيطان لآدمَ من الجنة وإخراج الله لآدمَ منها ليس بمعنى واحد، بل هناك فرق بيانه أن الشيطان تسبّب في الخطأ الذي ارتكبه آدم فطُرد بسببه من الجنة، فقيل إن الشيطان أخرج آدمَ من الجنة، وحيث إن الله تعالى قد أتى بهذه النتيجة فقيل إن الله تعالى أخرج آدمَ. أي أن الإخراج نُسب إلى الشيطان نظرًا إلى سوء ذلك الفعل، ونُسب إلى الله تعالى نظرًا إلى العقوبة التي أنزلها الله بسبب ذلك الفعل الخاطئ. ونفس الحال هنا قوله تعالى ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾، فهو لا يعني أن الله تعالى يُفسِد الإنسان، بل المراد أن الإنسان يفسُد فيجعله الله تعالى أسفل سافلين عقابًا على فساده، لذلك لم يقل الله هنا مثلا: "ثُمَّ رَدَدْنَاهُ سارقا أو قاتلا أو مذنبا".. بل قال ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾.. أي ثم ندفعه إلى الحضيض. إنه يرتكب جرمًا فنعاقبه عليه، وجرمًا آخر فنعاقبه مرة أخرى، وهكذا ندفعه إلى الحالة الدنيا ونُذلّه ونُخزيه باستمرار.

وقد يكون ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ حالاً لضمير الغائب.. أي ليس الفاعلُ ذا الحال، بل المفعول به هو ذو الحال، وعليه فالمراد أننا رددناه من بابنا حال كونه أسفلَ سافلين. وفي هذه الحالة لا يبقى الاعتراض الذي يرد على المعنى الأول حيث يكون

المراد أننا ندفع الإنسان من مقامه حال كونه ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾، أي أنه بسبب ذنبه يسقط من نظرنا فنخرجه من بلاطنا.

لهذه الآية مفهوم فردي ومفهوم جماعي. ونظرًا إلى المفهوم الجماعي تُعتبر هذه الآية تأكيدًا على أن الهداية سبقت الضلال حيث يقول الله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾.. أي لقد هيّأنا أسباب الهدى للإنسان أولاً، ولكنه فسد فيما بعد واتبع طريق الضلال. هذا هو الفارق بين الإسلام وأصحاب نظرية التطور، فإنهم يرون أن الإنسان كان ضالاً في البداية وتطورت عنده فكرة الدين فيما بعد، لكن القرآن الكريم يعلن أن الإنسان عندما زُوِّد بالعقل الكامل بعث الله تعالى آدم، ثم فسد الناس فبعث نوحًا، ثم فسدوا فبعث موسى، والآن بعث محمدا ﷺ لدى فسادهم؛ مما يعني أن الإنسان كان نموذجًا لأحسن تقويم في البداية، وأن الفساد جاء فيما بعد دائما. فمفهوم تطوُّر الدين كما يقدّمه الفلاسفة مفهوم خاطئ. صحيح أن الدين تطور في البداية على صورة التين، ثم على صورة الزيتون، ثم على شكل الطور، ثم على شكل البلد الأمين، وهكذا ظلّ الخير يتطور، وتطوُّر الدين بهذا المعنى صحيح، أما القول أن الضلالة كانت في البداية، فتطورت هذه الضلالة إلى الهداية باطل كل البطلان.

يقدم الفلاسفة الأوروبيون قضية ارتقاء الدين على أن فكرة الإله تطورت في الشعوب شيئا فشيئا. ففي البداية أخذت الشعوب تعبد تلك العناصر التي كان يخاف منها الإنسان شأن الطفل الذي إذا خاف من شيء أخذ في البكاء والتوسل. فلما رأى البرق يصعق الناس خافه فعبده، ولما رأى الأفعى تلدغ الناس فيموتون، خافها فعبدها، ولما رأى الناسَ يغرقون في النهر ويموتون خافه وعبده، ولما رأى البعضَ سقط من الجبل وهلك، خاف الجبلَ فعبده؛ فكل شيء وجده الإنسان مخيفًا أخذ يتوسل إليه ويعبده، ثم بمرور الوقت صرف بصره عن هذه الأشياء وأخذ يعبد العناصر التي فوقه في السماء، ثم بعد فترة اعتبر الأشياء غير المادية هي الأقوى، ثم في الأخير اقترح واحدًا منها أنه الأقوى. فتطوُّر الدين عندهم يعني أن الإنسان أخذ يحوّل بصره من عبادة الماديات شيئًا فشيئًا إلى أن بدأ عبادة إله غير مرئي، ولكن

القرآن الكريم يعلن أن هذه الفكرة باطلة، فليس صحيحا أن الضلالة سبقت الهداية، بل الواقع أن الخير كان أولاً والشر لاحقا. لقد جاء آدم عليه السلام أولاً فوضع الأساس للتمدن، ثم إذا حصل الفساد جاء نوح عليه السلام، ثم وقع الفساد فجاء موسى عليه السلام، ثم حصل الفساد فجاء محمد ﷺ، فحقبة الخير سبقت حقبة الشرّ، وهذا هو الفارق بين نظرية الفلاسفة ونظرية القرآن فيما يتعلق بتطور الدين. فمرحلة الحسنات سبقت مرحلة السيئات عند القرآن، ولكن الفلاسفة يرون أن مرحلة السيئات سبقت مرحلة الحسنات.

أما المفهوم الفردي لهذه الآية فهو أننا هدينا الإنسان وزودناه بقوى عالية للترقي في الخير، ولكنه حين يسيء استعمالها يتردى أسفل سافلين. بمعنى أنه في الحالتين يسبق المخلوقات الأخرى، فإذا مال إلى الخير سبق فيه المخلوقات كلها، وإذا تردى إلى السيئة سبق فيها المخلوقات كلها. فكأن الله تعالى قد جعل الإنسان مجموعة من الأضداد، فإذا عمل الخير سبق جميع الخلائق، وإذا عمل الشر صار أسوأ من الكلاب والخنازير. وبتعبير آخر إذا ترقى سبق الملائكة، وإذا تردّى أصبح دون الشياطين. فقوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ إشارةٌ إلى الكفاءات الكامنة فيه، وأما قوله تعالى ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِين * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ فإشارةٌ إلى ظهور تلك الكفاءات عمليًا. فالمعنى أن كلّ ما زوّد الله الإنسانَ به من قدرات هو خير، ولكن ظهورها العملي يكون بطريقين، إما أن يصبح مؤمنًا أو كافرا، وإذا صار مؤمنًا بلغ الذروة، وإذا صار كافرا سقط إلى الدرك الأسفل.

إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٍ ۝٦

التفسير: لقد استثنى الله تعالى هنا بعض الناس، فقال إن الذين يؤمنون ويعملون الصالحات دائمًا لا نردّهم أسفل سافلين؛ لأنهم يسيِّرون فطرتهم في الطريق السليم، ويستعملون قواهم في محلها.

وهنا سؤال: لماذا قدّم الله تعالى قوله ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ على قوله ﴿إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ عند بيان قوله ﴿أَحْسَنَ تَقْوِيمٍ﴾؟

الجواب أن الإيمان والعمل الصالح اسم آخر للاستعمال السليم للقوى الفطرية، فمَن آمن بأحكام الله وعمل الصالحات بحسبها فإنه يسلك في الواقع طريق الفطرة، فيحظى بنعمة الدين ويتمتع ببركة الإيمان والعمل الصالح، فكان ضروريًا أن يذكره الله تعالى ذكرًا منفصلاً بقوله ﴿إلا﴾، ليميّز بين الذين يُرَدّون أسفلَ سافلين وبين الذين يحسنون استعمال كفاءاتهم الفطرية.

أما السؤال: لماذا ذُكر الذين رُدّوا إلى أسفل سافلين قبل الذين آمنوا وعملوا الصالحات؟ فجوابه أنه لما كان هؤلاء قد نسوا غاية خلقهم فكان لزامًا -عند بيان أن الله خلق الإنسان معتدل القوى وأودعَ فطرته قوة الخير والفلاح- أن يزيل الله تعالى هنا شبهة وهي: إذا كان الإنسان خُلق في أحسن تقويم فلماذا يكون بعض الناس سيئين؟ فأجاب الله على ذلك أننا خلقنا الإنسان لهذا الغرض بلا شك، ومع ذلك يشوّه البعض فطرته ويسيء استعمال الكفاءات التي منحه الله إياها، وهكذا يتردى من مقام الرفعة ويسقط في الحضيض، ويصبح وصمة عار على جبين الإنسانية، وهذا ذنبه هو لا ذنب الذات الإلهية. وبعد ذلك قال الله تعالى ﴿إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.. وهكذاه استثنى من الأولين مَن آمن وعمل الصالحات، مبينًا أن الذين يحافظون على أحسن تقويم سالكين طريق الفطرة السليمة يشرّفهم الله تعالى بنعمة الإيمان ويوفقهم للصالحات. وكأن الله تعالى يقول إن الإيمان والعمل الصالح يواكبان الفطرة السليمة، فالذين يفسدون فطرتهم ويسيئون استعمال قدراتهم يسقطون أسفلَ سافلين، لكن الذين يسلكون طريق الفطرة والطبيعة ويحسنون استعمال قدراتهم ولا يشوِّهون فطرتهم فيُعطَون نعمة الإيمان أيضا ويوفَّقون لصالح الأعمال، ومثل هؤلاء لا يردون أسفل سافلين، بل ينالون من الله تعالى أجرًا غير مقطوع. وهكذا فإنهم يستحقون نعم الله تعالى على الدوام نتيجة عِلمهم الصحيح واستعماله الصحيح. فقوله تعالى ﴿آمَنوا﴾

إشارةٌ إلى العلم المناسب للحال، و﴿عَمِلُوا الصالحات﴾ إشارة إلى الاستعمال الصحيح للعلم، أي العمل الصحيح. وهذان هما الأمران اللذان يساعدان على الرقي الروحاني.

فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾

شرح الكلمات:

يُكذِّبك: كذَّبَه: نسَبه إلى الكذب؛ قال له أنت كاذب؛ جعَله كاذبا. (الأقرب)

الدّين: الجزاءُ؛ المكافأةُ؛ الطاعةُ؛ الحسابُ؛ القهر والغلبة والاستعلاء؛ والسلطانُ والمُلك والحُكم؛ والتدبيرُ؛ الاسمُ لجميع ما يُعبد به الله؛ الورعُ؛ المعصيةُ؛ الإكراهُ؛ الملةُ؛ العادةُ؛ والقضاء؛ والحال؛ والشأن. (الأقرب)

التفسير: يرى الزمخشري صاحبُ الكشاف أن قوله تعالى ﴿فمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ يعني: رغم هذه الأدلة والبراهين ما الذي يدفعك لتكون كاذبا بإنكار الجزاء والعقاب؟ فكأن الزمخشري يرى أن الخطاب هنا موجه للكافر، والتكذيب ليس بمعناه العام، بل هو بمعنى جعْل المرءِ نفسَه كاذبا. هذا المعنى قد قُبل على العموم، ولكنه لا يبدو صحيحا؛ إذ الخطاب هنا للرسول ﷺ، وهذا ما قاله القاضي والفراء أيضا، والمراد: مَن ذا الذي يستطيع أن يكذبك الآن في أمر الجزاء والعقاب (فتح البيان). علمًا أن "ما" تكون مصدرية حينًا، ولغير ذوي العقول حينًا، وبمعنى "مَن" حينًا. وهي ليست مصدرية هنا، بل هي لغير ذوي العقول، أو بمعنى "مَن" (المنجد). فلو اعتبرناها لغير ذوي العقول فالمراد من قوله تعالى ﴿فمَا يُكَذِّبُكَ﴾: ما هو الشيء الذي يكذّبك، وإذا اعتبرناها بمعنى (مَن) فالمراد: مَن هو الشخص الذي يكذبك بعد هذا الدليل؟ أما قوله تعالى ﴿بالدين﴾ فيعني: في أمر الدين، أو في أمر الجزاء والعقاب، حيث إن الباء في ﴿بالدين﴾ بمعنى (في)، أو بمعناها العادي، أي: فمَن يكذّبك مستندًا إلى الدين؟ أي بأي دليل يمكن أن يكذبك عدوك، وأي شيء يمكن أن يقدمه عدوك خلافك بعد هذه الأمثلة الثلاث التي ضربناها آنفا، فقد جاء

آدم، فحاربه الشيطان ظنًّا منه أنه سيهزمه، ولكنه انتصر وانهزم الشيطان، ثم جاء نوح وحاربه العدو وبذل كل ما في وسعه لإفشاله ظنًا منه أنه سيهزمه، ولكن نوحا انتصر وعدوه خاب وخسر، ثم جاء موسى فحاربه عدوه بجنوده ولم يدّخر وسعًا لإفشاله، لكن موسى نجح وفشل عدوه. سيقول لك العدو أنت ضعيف ولن تنجح ضدنا؟ أفلا يعلم عدوك أن آدم ونوحا وموسى كلهم كانوا ضعفاء، وكان أعداؤهم الأقوياء يظنون أنهم هم المنتصرون، ولكن هؤلاء الأنبياء انتصروا عليهم رغم ضعفهم، فكيف يمكن ألا تنتصر على عدوك رغم ضعفك؟ سيقول لك العدو أنت عديم الحيلة، فنحن الغالبون عليك حتما، ولكن ألا يرى عدوك أن آدم ونوحا وموسى أيضًا كانوا عديمي الحيلة ومع ذلك صاروا غالبين على أعدائهم؟ فمَن يمكنه أن يشكّ -بناءً على الدين الحق- في جزائك وهلاكِهم بعد هذه الأمثلة؟ أو أي دليل يمكن أن يشككهم بعد هذه الأمثلة في أمرك؟ إن أحداث الأنبياء السابقين تدل على صدقك دلالة الشمس في كبد السماء، وكل مَن يتدبر فيها خاليًا من التعصب سيضطر للإقرار بأن الفطرة الإنسانية تصحو في الأخير لتأييد الإنسان فلا يستطيع إنكار الحقّ طويلا. لقد نجح الأنبياء السابقون في هدفهم بمساعدة سلاح الفطرة، وهذا السلاح نفسه سيكتب لك النجاح في مهمتك، فمهما عارضك العالم ومهما نَسج المؤامرات، فإن الفطرة السليمة سوف تقف لنصرتك في النهاية فتكون أنت الغالب وسيهلك عدوك ذليلا مهانًا.

والمعنى الثاني لقوله تعالى ﴿فمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ هو: كيف يمكن - رغم وجود هذه الأمثلة الثلاثة- إنكار دين الله.. أي الدينِ المبني على وحي الله؟ وفي هذه الحالة يكون الدين بمعنى الشريعة لا بمعنى الجزاء والمكافأة، ومفهوم الآية: من ذا الذي ينكرك في أمر الدين بعد هذه الأدلة؟ فما داموا يؤمنون أن آدم ونوحا وموسى -عليهم السلام- قد تلقّوا الوحي وأتوا الناس بدين الله، فكيف يمكنهم أن يقولوا أن الله لا يوحي إلى أحد الآن، أو أنه لا يمكن أن ينزل أي دين لهداية الناس.

والمعنى الثالث لهذه الآية هو: هل هناك بعد هذه الدلائل برهان ديني يمكن أن يقدَّم خلافك؟ فلو تدبروا الأمر لوجدوا أنهم لن يجدوا لتكذيبك أي برهان ديني، لأن سنة آدم ونوح وموسى موجودة قبلك، والبراهين التي دلت على صدق هؤلاء الأنبياء سوف تؤكد صدقك أيضا باليقين. لا يمكنهم تكذيبك إلا بدليل لا يسيء إلى أنبيائهم الذين يؤمنون بهم، ومثل هذا الدليل ليس بأيديهم، أما حججهم التي اختلقوها بعقولهم الفاسدة فلا تخالفك وحدك فحسب، بل تعارض الأنبياء السابقين أيضا.

والمعنى الرابع لهذه الآية هو: هل يظن بعد ذلك أحد أنه يمكن أن يكذبك بتدبيره وكيده؟ والدين في هذه الحالة يكون بمعنى التدبير. فالله تعالى يقول لرسوله الكريم: هل يمكن أن يتصور أحد بعدما أظهرنا لك من آيات عظيمة أنك ستنهزم وأن عدوك سينتصر؟ فكم مِن كيد كاده العدو ضد آدم! وكم من حيلة احتالها أعداء نوح! وكم من جهد بذله فرعون وأعوانه لهزيمة موسى! ومع ذلك كان مآلهم الفشل ولم تنفعهم مكائدهم شيئا. فكيف يفكر أعداؤك يا محمد أنهم سيصبحون غالبين عليك بمكائدهم وتدابيرهم!

والمعنى الخامس لهذه الآية هو: من ذا الذي يستطيع أن يخالفك متمسكًا بالتقوى؟ والدين في هذه الحالة يكون بمعنى الورع الذي يعني التقوى والروحانية، ومفهوم الآية: مِن المحال أن يعارضك أحد وهو خاشعٌ لله وخائفٌ عقوبته وسالكٌ سبل التقوى والروحانية. إنما ينبري لعدائك أصحاب الطبائع السيئة الزائغة الذين ليس في قلوبهم ذرة من الورع والتقوى، إنما بعُدوا عن الصلاح والروحانية بُعدًا كبيرًا.

والمعنى السادس لهذه الآية هو: من ذا الذي يستطيع أن يكذبك الآن بالإكراه! أي بعد رؤية مصير الأنبياء السابقين. مَن مِن أصحاب النوايا السيئة يقدر على مقاومتك بسلاح الجبر والإكراه ظنًا منه أنه سيصلحك بالضرب والأذى! إن أعداء الأنبياء السابقين أيضًا هددوهم بالضرب والقتل، فمتى نفعهم الإكراه؟ كلا، لم ينفعهم إكراههم شيئا، ولم يمنع جبرهم انتشار دين الله، فكيف يفكر أعداء الحق

الآن بعد هذه الأمثلة أنهم سينجحون في تحقيق مقصدهم بالجبر والإكراه! كلا، بل لا بد أن ينتشر دين الله تعالى ويصبح الإسلام غالبًا في الدنيا ولن يحول في سبيل ازدهاره ورقيه عائق.

أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾

التفسير: أي: ألا يدرك هؤلاء بعد كل ما قدّمنا لهم من أدلة ونصائح أن الله هو أفضلُ مَن يحكم لا غيره، فإذا حكم بأمر فلا تقدر أكبر قوة في العالم على منعه. لقد حكم الله تعالى أن ينجح آدم فنجح، وقد قرر ﷻ أن يصبح نوح غالبًا على عدوه فصار غالبا، وقد أراد ﷻ أن ينجح موسى فنجح، وقد قرر الآن أن يرتقي محمد ولسوف يرتقي ويتقدم، ولن تقدر الدعاوى الفارغة لأهل مكة أن تغيّر هذا القدر، بل سترى الدنيا أن الحكم الأخير بيد الله تعالى.